جدلية الوطن و المنفى في رواية "سقف الكفاية" لمحمد حسن علوان

د. ملحة بنت حمود نويحي الحربي

أستاذ الادب والنقد المساعد في كلية الآداب بجامعة الاميرة نورة بنت عبدالرحمن

The Dialectics of homeland and exile in the novel “Adequacy Ceiling” by mohammed hassan elwan

Dr.Malhah Homoud Newehi AlHarbi

Assistant Professor of literature and criticism- Faculty of Arts - Princess Nourah bint Abdulrahman University

Email : mhAlharbi@pnu.edu.sa

Abstract:

The purpose of this research is to focus on the structure as it includes significance by considering the literary text as a manifestation of the language and to study it by mechanisms and used structures in a renewed linguistic format. The application was not applied to the literary text meaning, but on its structure in order to create the meaning and to produce it to be open to the modern methods of criticism, and also through the use of the text components which consist of (the characters – the spatial framework - the temporal framework – the narrator – the events), and how to employ them in speech. There is also an interest in building the speech production system which is called the rhetorical power and language poetics.

The research also deals with the analysis of the internal elements that control the formation of significance. The meaning should be tackled as a result of relationships network which link between the elements through the image of both the homeland and the exile. This is done through the structural model, where meaning proves its existence from difference and within difference. Henceforth, understanding the meaning of speeches and actions supposes the existence of a system and a relation pattern. This, in turn, leads us to recognize that the text elements are meaningful only through a network of relationships between them. Therefore, it is necessary to pay attention only to the elements that were included in the text structure at both evaluation and creation levels, through the reproduction of a distinct poetic language in an intellectual literary context which keeps up developments in modern Arab criticism.

The research on the "dialectics of the homeland and exile" allows us to reveal the characteristics of the relationship between the Arab writer and his homeland in its history: its trajectories, its transformations, and its revealed options that form the homeland bets of history on the one hand and the writer's bets on life on the other hand, in addition to the dialectical relationship between the self and the homeland, and then the writer’s bets on life. The homeland loss of its bets on history often leads to the self loss of its bets on life. So that, exile is an alternative to the homeland, after the latter turns into an exile which is harsher than exile abroad by relying on the principle of the bipolarity (home and exile) or the opposite dualities of (homeland and an alternative homeland , exile and homeland exile), from which the framework that generates meaning and restricts in it the cultural, the social and the intellectual political context is built.

Keywords: structuralism, the structure, system, context, poetics, a tale, speech.

الملخص:

يهدف البحث إلى التركيز على الإهتمام بالبنية بوصفها الحاملة للدلالة من خلال النظر إلى النص الأدبي كمظهر من مظاهر اللغة، و دراسته بواسطة آليات و بنى مستعملة في خباياه ضمن نسق لغوي متجدد، إذ لم يكن التطبيق على المعنى الذي يقدمه النص الأدبي بل على البنية التي يخضع لها ليولد المعنى وينتجه ليكون منفتحا على المناهج النقدية الحديثة، و أيضا من خلال توظيف مكونات النص المتكونة من (الشخصيات – الإطار المكاني – الإطار الزماني – الراوي – الأحداث)، و كيفية توظيفها في الخطاب، و أيضا الإهتمام ببناء نظام إنتاج الأقوال وهو ما يسمى بالقدرة الخطابية و شعرية اللغة و جماليتها.

كذلك تطرق البحث إلى تحليل العناصر الداخلية المتحكمة في تكوين الدلالة، فالمعنى يجب أن ينظر إليه على أنه أثر ناتج عن شبكة من العلاقات الرابطة بين العناصر من خلال صورة كل من الوطن والمنفى و هذا من خلال النموذج البنيوي حيث يكتسي المعنى وجوده بالإختلاف وفي الإختلاف. و من ثم، فإن إدراك معنى الأقوال و الأفعال يفترض وجود نظام و نسق من العلاقات. وهذا بدوره يؤدي بنا إلى تسليم أن عناصر النص لا دلالة لها إلا عبر شبكة من العلاقات القائمة بينها. لذا لا يجب الإهتمام إلا بالعناصر ما كان منها داخلا في نظام البنية النصية تقييما و بناءً عبر إعادة إنتاج لغة شعرية متميزة في سياق فكري أدبي يواكب تطورات النقد العربي الحديث.

يسمح لنا البحث في إشكالية "جدلية الوطن و المنفى" بالكشف عن خصائص العلاقة القائمة بين الكاتب العربي و وطنه في تاريخيته وما يتخللها من مسارات، وما شهدته من تحولات، وما كشفت عنه من خيارات، حيث شكلت رهانات الوطن على التاريخ، من جهة ورهانات الكاتب على الحياة من جهة أخرى والعلاقة الجدلية القائمة بين الذات و الوطن، و من ثم رهانات للكاتب على الحياة، فخسران الوطن لرهاناته على التاريخ غالبا ما يتسبب في خسران الذات لرهاناتها على الحياة فيكون المنفى بديلا من الوطن، بعد أن يتحول هذا الأخير إلى منفى أقسى من منفى الخارج و ذلك من خلال الإعتماد على مبدأ القطبية الثنائية (وطن و منفى) أو الثنائيات الضدية (وطن ووطن بديل، منفى و منفى الوطن) التي يُبنى على أساسها الإطار الذي يولد المعنى و يحصر ضمنه السياق الثقافي و الإجتماعي و السياسي الفكري.

الكلمات المفاتيح: النظرية البنيوية ، البنية، نظام، سياق، شعرية، حكاية، خطاب.

مدخل:

يمثل المكان على اختلاف تشكلاته مبحثا مهما من مباحث النقد الأدبي المعاصر، حيث مثل المنجز النظري المتحقق حوله نوعا من التراكم في النظريات النقدية الغربية وآلياتها الإجرائية، وكذلك في النقد العربي المعاصر، حيث تعددت في شأنه المقاربات النظرية الباحثة في ماهيته ومفهومه وأنواعه ووظائفه الجمالية والدلالية، وكذلك المقاربات النقدية للأعمال السردية، والروائية منها بالأساس، باعتباره عنصرا تكوينيا مهما من عناصر العمل السردي، إذ يمثل عنصرا فعالا في الشخصيات، فعن اختراقها له تنتج الأفعال وعن انفعالها به سلبا أو إيجابا تنتج الحالات وكذلك الأقوال، ما يكشف أهمية المكان ووظيفته في إنتاج النص السردي عامة والروائي منه خاصة .

وقد تعددت الدوافع التي حفزتنا على اختيار موضوع هذا البحث الموسوم بـ : "**جدلية الوطن والمنفى في رواية سقف الكفاية للكاتب محمد حسن علوان**"، ويتمثل أبرزها في:

- أهمية مبحث المكان في النظريات السردية المعاصرة، باعتباره عنصرا تكوينيا مهما من عناصر تشكيل النص الروائي جماليا ودلاليا، وهو المبحث الذي تبقى الدراسات النقدية العربية في شأنه محدودة، دون ما فتئت تحققه المدونة الروائية العربية من تراكم في تجاربها ومن ثم في نصوصها، ومن تحولات دينامية في مساراتها واستراتيجية كتابتها.
- أهمية تجربة الكاتب محمد حسن علوان، التي تمثل تجربة مختلفة، لها خصوصيتها في المشهد الروائي السعودي، ما يعلل اهتمام النقاد بها وتراكم مقارباتهم حولها و تناول العديد من جوانبها، وذلك من خلال ما تتميز به علاماتها الدالة على خصائصها الجمالية والدلالية فضلا عن إقبال القراء الشديد عليها، ما جعلها تمتلك قاعدة قراء مهمة، أسهمت في مزيد انتشارها وإشعاعها محليا وعربيا.
- عدم تمثيل الوطن والمنفى في رواية "**سقف الكفاية**" لمحمد حسن علوان موضوع دراسة نقدية أو بحث أكاديمي.
- أهمية ثنائية أو تقاطب الوطن والمنفى، في رواية "**سقف الكفاية**"، إذ يمثل كليها عنصرا مكانيا ثابتا ووظيفيا منتجا فيها وجامعا مشتركا بين مكوناتها، حيث يتواتر حضوره في كامل فصول الرواية، ما يجعل كلا من الوطن والمنفى، نوعا من محفزات الكتابة وقادحا لها، ومحركا من محركات كتابتها، خاصة أن هذا التقاطب يمثل مدار تجربة السارد الوجودية والإبداعية في المجال الروائي، باعتبار إقامته خارج الوطن بين كندا والسعودية وزيارته للوطن كلما دعت الحاجة إلى ذلك، ما يجعل هذه الثنائية تمثل عنصرا أساسيا من عناصر وجوده وكيانه.

- أهمية تناول إشكالية الوطن والمنفى في رواية "**سقف الكفاية**"، حيث تتداخل التخوم بين الوطن الداخل والمنفى الخارج حد الالتباس والتماهي، فيتحول الوطن إلى منفى ويصبح المنفى وطنا. وهي الجدلية التي تضفي على رواية الكاتب محمد حسن علوان سمة الدينامية، من خلال توليدها لعلائق تفاعلية في مستوى علاقة الأمكنة ببعضها البعض، وهنا الوطن والمنفى، وما يقوم عليه كل منهما من أماكن و خاصيات، وكذلك في مستوى علاقة الأمكنة بالشخصيات الروائية، التي تتبادل معها التأثير والتأثر.

فكل من الوطن والمنفى فاعل في الشخصيات، حيث يمنحها الهوية ويوجه مسارات حياتها ويحدد خيارات وجودها كما يبلور مصائرها، فضلا عن نحته لمنظورات الذات والعالم من حولها، كما أن الشخصيات تمنح مختلف أماكن الوطن والمنفى ديناميتها وفعاليتها، ومن ثم وظيفيتها بكل أبعادها الجمالية والدلالية في آن، من خلال ما تقوم به من أفعال وما تعيشه من حالات وما تتلفظ به من أقوال، ما يؤكد عضوية العلاقة وديناميتها بين المكان متمثلا في ثنائي أو تقاطب الوطن والمنفى والإنسان مجسدا في مختلف الشخصيات، التي تؤثث عوالم الحكي في رواية "**سقف الكفاية**".

وتقوم صيغة البحث في هذه الإشكالية على مفهومين رئيسيين، هما الوطن والمنفى، وهما مصطلحان يبدوان في الظاهر يسيرين على مستوى التمثل والفهم، بسبب كثرة تداولهما إلا أنهما في الجوهر على قدر من العسر، خاصة في هذا الواقع المعولم، الذي أضفى الالتباس على مفهوم كليهما كما على العلاقة القائمة بينهما، وانعكاساتها على واقع الفرد المعاصر بل والمجتمعات المعاصرة عامة، حيث يسهم الوطن كما المنفى في تحديد مسارات الوجود الفردي والجمعي وكذلك اختياراته ومصائره وهي الإشكالية، التي يروم هذا البحث طرحها من خلال التجربة الروائية للكاتب السعودي محمد حسن علوان في "**سقف الكفاية**".

وهي الرواية التي يمثل تقاطب الوطن والمنفى الجامع المشترك بينهما، والعنصر التكويني الثابت، الذي يسهم مع بقية العناصر التكوينية السردية في تشكيل عوالم حكيها وسدي النسيج الحكائي لنصوصها، ما يكشف عن العلاقة العميقة القائمة بين الذات الكاتبة وكلا من الوطن والمنفى، والتي جسدت المحور، الذي تدور في فلكه مختلف العناصر التكوينية للرواية، من فضاءات وشخصيات وتجارب وأحداث ووقائع يتعالق فيها الذاتي والتاريخي، الواقعي والمتخيل، الكائن والممكن، الموجود والمنشود.

ولما كانت الرواية ذلك الجنس الأدبي، الذي يتميز بانفتاحه على سائر الأجناس الأدبية والفنون القديمة منها والحديثة، وقدرته على استيعاب العديد من عناصرها التكوينية وخصائصها الجمالية، فأننا سنسعى إلى أن نتخذ من **المنهج البنيوي**، الذي ينفتح على مختلف المناهج النقدية ويفيد من منجزاتها النظرية وطرائقها الإجرائية، منهج اشتغالنا على هذا البحث في بعديه النظري والإجرائي، من خلال البحث في هذه الإشكالية في مستوييها النظري واللغوي، باعتبار أن كلا من الوطن والمنفى متصورا ذهنيا مجردا، والبحث في صور تمثل الكاتب محمد حسن علوان لكل من الوطن والمنفى، في تجربته الروائية والوقوف على منظور كليهما، وعلاقته به إنسان ومبدع، وإن كانت التخوم تبقى ملتبسة بين الذات الكيان والذات البيان، ومن ثم الوقوف عند خصائص منظور الكاتب العربي للوطن والمنفى في آن، باعتبار أن الوطن يتحول إلى منفى في الكثير من الروايات العربية الحديثة...

وقد تجاوز النقد العربي للرواية العربية الجديدة هذه النظرة السطحية للمكان عنصرا تأثيثيا في النص الروائي بعد التطرق إلى سماته الشعرية بعيدا عن الموضوعية والحيادية والواقعية، التي تجعل منه مكانا واقعيا فقط يتماشى مع النسق السردي في الرواية لا أكثر.

وهي البنية التي تجعل من النص الروائي في مدونة بحثنا تنفتح على أفق نقدي حداثي مغاير للسائد السردي، كما سنستجلي خصائص اللغة الروائية وذلك نظرا للاشتغال المكثف للكاتب على اللغة و رمزيتها و شعريتها.

وهو يعطي للنص خصوصية وتميزا واختلافا نظرا لتداخل كل من السردي والشعري، الواقعي والمتخيل، ولاحتوائه على الكثير من أفانين البلاغة والمجاز ولاستعارة والإيقاع والموسيقى والتكرار وثراء المعجم، خاصة المعجم النفسي، الذي يطبع الرواية بروح شعرية وصفية متميزة.

اولاً: الوطن و تعدد الوجوه و المرايا

أ. الوطن و ذاكرة العشق و الحنين:

يعد الوطن عنصرا تكوينيا ثابتا في تشكيل العوالم الروائية لمدونة بحثنا، حيث يتواتر حضوره في فصول الرواية ، وكأن الكاتب كتبت على إيقاع مشاعر ملتبسة تجاه الوطن فيها من الاحتفاء به الكثير ومن الألم به أكثر. فالوطن السعودية الأرض والناس والموطن الرياض، هي فضاءات حاضنة للبنات الأولى للشخصيات وتجاربها، فالذوات بوجودها وكينونتها في المكان تعيد تشكيله وتحويله إلى أشكال مختلفة بالاعتماد على تقنية التداعي والتذكر في النص الروائي، حيث تقوم الذاكرة بالدور الأساسي في تشكيل الخطاب السردي، الذي يقوم على استحضار الماضي عبر الاشتغال المكثف على الذاكرة والتي تؤسسها الذاكرتان الفردية والجماعية، وهو ما يساهم في التباس الحدود بين الوطن الواقعي والوطن المتخيل في النص الروائي.

قام الكاتب محمد حسن علوان بتحويل الذكريات إلى مادة سردية يؤثثها التاريخ ويلونها العشق والحنين إلى الماضي، حيث أعيد تشكيل الوطن وعوالمه عبر هاجس الزمن العشقي للماضي، فالكاتب تمثل الوطن بكل تجلياته وصوره، الأرض، والناس، التراث، والعادات والتقاليد، والطبيعة، إذ يدخل فضاء الوطن في علاقة تفاعل مع المكونات الحكائية للسرد كالشخصيات والزمان والأحداث والرؤى السردية، باعتباره يمكن النظر إلى المكان الروائي على أنه بؤرة تجتمع فيها شبكة من العلاقات التي تجمع بين عناصر الرواية المختلفة، وهو ما جسده الكاتب في تمثل الوطن بؤرة و تيمة أساسية في متون فصول الرواية "فالكاتب لا حياة له ولا مجد ولا خلود إلا إذا سكن فيه الوطن، والوطن لا خلود له ولا ذكر إلا إذا كان له امتداد عن طريق الأدب"[1] ما أدى إلى تعميق العلاقة بينهما، تلك العلاقة التي أخذت في التنامي حتى أصبح الوطن واحدا من القضايا التي يخترقها الكاتب ويعدها من أهم القضايا التي يشكل بها عالمه الروائي.

ويمكن النظر إلى المكان الروائي على أنه بؤرة تجتمع فيها شبكة من العلاقات، التي تجمع بين عناصر الرواية المختلفة، ومن ثم يصبح المكان عنصرا مهما في الكشف عن علاقة الشخصيات بالمكان والتي تتجاوز حدود الفضاء، الذي تتحرك فيه.

كما يعد المكان عنصرا تكوينيا مهما من عناصر البناء السردي في رواية "**سقف الكفاية**"، من خلال أبعاده الدلالية العميقة، التي تتلاقى وتتفاعل وتتمازج، مع البطل والأحداث، ورصد تصرفاته، ومدار تفكيره، وآماله وأحلامه وتصوير البيئة الطبيعية المتمثلة في الوطن والأرض، وهو ما سعى إلى تجسيد خصائص المكان الطبيعية للوطن السعودية، وذلك من خلال رسم ملامح البيئة التي تنتظم مع الأحداث والشخصيات في وحدة فنية متكاملة، والتي تتمثل في الأبعاد المادية والمعنوية، التي تحمل في طياتها، معاني أبعد وأعمق، من حقيقة المكان، والأشياء الملموسة، والتي عن طريقها سنتبين المقاصد الدلالية للكاتب من خلال رسم لوحات حسية وصفية ناطقة تكشف عن انفعالات الذات وأبعاد النفسية تجاها الوطن يقول البطل ناصر" حاولت كثيرا أن أفلسف المطر. كنت أخرج إذا هطل المطر في الرياض إلى حيث أبقى أنا و هو وحيدين. و إذا عجزت عن الخروج كان سطح بيتنا يشهد الإرهاصات الأولى التي أحاول فيها أن أشرح المطر على مسودته. الآلاف من النقاط الصغيرة تقذف جبين الأرض. هذا العناق السماوي الأرضي العنيف، لقاء توأمي الأزل اللذين يحملان على عاتقيهما مصير المخلوقات و الحياة. الرياض لا تغيم كثيرا، و متى غامت انتابت الجميع رغبة عارمة في الفلسفة المطرية. الجميع يهذر حسب فهمه. الشاعر بدفتره، و المسن بذاكرته، و الأنثى بقيودها، و العاشق بسهومه، و المتشرد بحفائه، والفلكي بأنوائه و نجومه [2].

يعمد الوصف في متن النص الروائي لمدونة بحثنا على إسداء وظائف هامة ضمن جماليات الخطاب من خلال تمثيله للصفات المحسوسة للحيز والأشياء والموجودات والمكونات الطبيعة، كما يكشف أيضا حالة الحنين والعشق، التي تتعالق مع الحالة الشعورية للأنا وعلاقتها بالمكان، حيث تعود مشاهد الطبيعة بذاكرة الشخصيات إلى الماضي التاريخي للوطن.

ويلمس المتأمل في المقطع السابق تناثر علامات ومفردات مكانية كالمناخات، والأرض و السماء و الطقس، وهي الأماكن التي تعبر عن الاختلاجات النفسية المضمرة للبطل، وهو ما يكشف عن التمازج بين الفضاء النفسي والفضاء الحسي ما يبرز

1 ميهوب محمد : آيت فلسطين..الارض والسماء، "مجلة الحياة الثقافية" العدد242 السنة 38 جوان2013م، ص 55.
2 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 102.

علاقة التفاعل والتكامل بينها. فالسارد لا يتعامل مع المكان كحيز جغرافي فلا يصفه وصف موضوعي سطحي ، ولكنه في نظره حيز إنساني يتفاعل معه ويتأثر بما فيه. يقول ناصر أيضا " شعرت أن الرياض التي تعبت معي لن تمنحني أكثر من زحام الناس الذين لا يشعرون بي، و آلام الكلى التي تستفحل في خاصرتي، و أنين الذاكرة التي تستنطق حبنا في هذا المكان و ذاك، و المزيد من التعجب الذي تشي به عينا أمي إزاء الانطواء المريب الذي آل إليه أمري"[1].

تحظى الطبيعة في الكتابة السردية عند محمد حسن علوان بالعديد من الوظائف فهي "لا تنهض بوظيفة تزيينية أو تلبي تصورا فنيا فحسب، وإنما تتضمن الكثير من الدلالات الذهنية والإيديولوجية التي تخبرنا عن الوشائج القائمة بين محيط الإنسان ووعيه بالمظاهر الطبيعية" وما تولده لديه من مشاعر البهجة والألفة" [2]. نظرا للعلاقة القائمة بين الذات والآخر وانفتاح أفاق التواصل بينها. من خلال "التماهي الوظيفي بين الإنسان والطبيعة، والذي يمثل علامة دالة على تجاوز الفن – وهنا الكتابة الروائية – مستوى محاكاة الطبيعة بالمصطلح الأرسطي إلى مستوى الإيحاء بها، والذي تتعدد صور تجليه وتتنوع دلالاته النفسية والفكرية والجمالية "[3].

إن الجمالية فالخطاب الروائي هي الوجه الآخر لسرديته، ذلك من خلال بناء المكان وفق رؤية ذاتية خالصة، حيث يبعد هذا الفضاء عن رتابة الأمكنة في الواقع، ليأخذ بعدا ساميا مقدسا، وهي الصورة التي تلتقي مع شعرية اللغة فتؤثران في المتلقي، الذي يفتتن بجمالية هذا المكان لغويا وليس بصريا إلى الحد، الذي يجعله يتشارك مع المبدع في إحساسه بالمكان وهو ما لاحظناه في الجانب الجمالي، الذي كان حاضرا بقوة في أغلب أعمال الكاتب الروائية وقد تمثل خاصة في جانب اللغة الشعرية، في استحضار المكان، حيث يعتمد توظيف تقنيات الوصف والتصوير والترميز والإيحاء والانزياح و التخييل والتكثيف في وصف المكان ورسم تفاصيله المادية.

ب. الموطن عنوان هوية :

يقترن الموطن "**الرياض**" بحالات شعورية نفسية أخرى كالطمأنينة والأمان لما يحققه للفرد من استقرار وحرية وتحديد لملامح الهوية، إلا أنه ينبغي التنبيه إلى أن الدلالة المستوحاة من المكان، لا تنبثق بالضرورة من المكان برمته، إذ يمكن أن تنبثق من أحد عناصره أو أحد متعلقاته من، مثل الأسرة أو الأصدقاء، و الثقافة، والدين، واللغة...

إذ يعتبر الموطن المكان الأصلي والمركزي، الذي يقترن بالإنسان مهما تغيرت الظروف والأزمنة والأمكنة، فهو يظل قرين الذاكرة والنفس ومصدرا للشعور بالانتماء والهوية، وهو ما سنبينه من خلال تمثلنا لتجربة الكاتب محمد حسن علوان الروائية، من خلال دراسة تمثلات الأنا الكاتب والذات الساردة والشخصيات الروائية وعلاقتها بالوطن والموطن المدينة، إذ يعتبر الموطن في التجربة السردية للكاتب السعودي عاملا مهما في تشكيل وعي الشخصية بذاتها ومحددا لهويتها ولكينونتها " فالعلاقة بين المكان وحقيقة الأنا، التي تشغله جدلية تدعمها مقولة الفيلسوف الإسباني أوتيقا إي قاسي : أخبرني عن المشهد الذي تعيش فيه أقل لك من أنت ويؤكدها الشاعر الإرلندي شيموس هيني عندما يكتب : لكي تعرف من أنت لا بد أنّ تعرف المكان الذي أتيت منه، ولكي تعرف أين تتجه لا بد أنّ تعرف أين كنت"[4].

ونلاحظ من خلال ما تقدم أن العلاقة بين المكان والذات علاقة تلازمية فمعرفة الذات تستدعي بالضرورة معرفة المكان، الذي تنتمي إليه فهو يسهم في تكوين اللبنات الأولى للفرد من خلال نحت كيانه وتاريخه ووجوده، إذ يمثل الوطن بشكل عام والموطن بشكل خاص، ذلك المكان المولد لذكرى الشخصيات في النص الروائي. وهو فضاء حاو للكثير من الفضاءات الأخرى وهو بؤرة للأحداث في بعديها الذاتي والجماعي ومدار التجربة المعيشة والعادات والتقاليد، لما تحمله من مرجعيات معرفية وتاريخية وانتماءات فكرية، وهو ضرب من ضروب تأصيل الهوية، و يتجسد هذا من خلال قول الكاتب على لسان بطله ناصر " كان جبين الشمس يلوح لي من وراء نافذتي المربعة، و الرياض هذه الأيام هولوكوست حقيقية، تحشر ملايينها القليلة في أتون

1 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 91.
2 بحراوي حسن : بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،1990م، ص 52.
3 بن جمعة بوشوشة : "شعريَة المدينة الأوروبية" في الرواية النسائية المغاربية مجلة الحياة الثقافية العدد 242 السنة 32 جوان2013م، ص 38.
4 حافظ صبري : أعمال ندوة الرواية العربية ، رؤى ومسارات 2003م، ص 30.

الموسم الحار، و تنام مثل سفينة فضائية هائلة جثمت فوق الصحراء منذ مئة عام و لم تتحرك حتى الآن، و لكن حتى هذه القائلة القائظة لم تكن لتسكت شوارعها المزدحمة عن الحركة، و أنا تأتيني صرخات السيارات المارقة من بعد، رغم أزيز جهاز التكييف المجهد، و شغب الأفكار المتحالفة مع ارتجالية ذاكرتي [1].

يكتسي خطاب السارد الكثير من الانفعالات الشعورية التي تصور حالته النفسية لتواصل الإيجابي مع حاضر المدينة مثلما تواصل من قبل مع ماضيها، وهذا من خلال تكثيف الارتباط النفسي بهذا الحاضر، ومن خلاله نلمس رمزية المكان التي تطغى على النص الروائي، المكان، الحب، الأنثى خاصة أن البطل يعتمد على الذاكرة والتداعي النفسي في استرجاع الماضي ومقارنته بالحاضر، وفي كل صورة من هذه ميزة لإغناء الدلالة وتنويعها وتجسيدها وإلحاقها بما هو أقوى منها استجابة لقوة العاطفة والانفعال.

يعتبر المكان المكون الأساسي والعنصر البنائي الجوهري في العملية السردية، وقد اشتمل المتن الحكائي لرواية "**سقف الكفاية**" على فضاءات مكانية مختلفة ومتنوعة، وذلك من خلال" الطبيعة غير المضمرة للفضاء، أو على الأقل الخاصية غير الطبيعية لنظام معين للأمكنة ولصفاته الفضائية كوحدات تمثل (بخلاف الشخصيات أو المراحل الحديثة للفعل). لقد انشغلت السرديات من جهتها، بدراسة مقولات المحكي، بصيغ إحداثها والأولويات التي تفصلها بعضها ببعض، أكثر مما اهتمت بالتمثلات التي تكون المادة وتكون بنبيتها الخاصة"[2] يقول البطل "كنت أعلم أن لقاءاتنا أكثر بكثير من المعدل الذي أن يلتقي به شاب فتاته في مدينة مثل الرياض، ولكن ظروفنا كانت سخية جدا، و تمنحنا دائما المكان و الزمان بكل طيبة و تواطؤ"[3]. فدراسة المكان لا تنفصل عن العناصر الأخرى للحكاية كالشخصيات، ذلك أن الفضاء هو مكان مجريات الأحداث وحيز تنقل الشخصيات وحلبة لصراعهما مع الزمن، حيث تسمح لنا حركة الشخصيات في الفضاء بتمييز عدة أماكن في النصوص الروائية، كالأماكن العامة والمفتوحة كالبيت، و الغرفة، والشوارع أين يكثر التنقل كنقاط عبور الشخوص.

ولئن بدا عنصر المكان تيمة أساسية في السرد لكونه الإطار المحدد للأسئلة الموضوعاتية فهو أيضا العنصر، الذي تستمد منه الشخصيات ذكرى ماضيها وحنينها إلى الوطن من خلال تحديد هويتها وانتماءاتها كما يعتبر المكان عاملا مهما في تشكيل ملامح الوطن والموطن والمجتمع لما يثيره من دلالات إيديولوجية و سياسية و ثقافية، دينية. يقول ناصر " شوارع الرياض الخاوية صباح يوم الجمعة ستأخذني إلى وهم ما أفطر عليه، أو منديل أمسح به دموعي الثقيلة . لا أحتاج إلى سيارتي و سجائري وموسيقى باني القديمة الهادئة التي عرفتنا معا، و ذاكرة من وحل و غبار" [4].

تعتبر مدينة " **الرياض**" فضاء مركزي لبداية الأحداث في "**سقف الكفاية** " ونهايتها، هذا الفضاء الدائري، له خصوصيته و أبعاده وأشكاله ، حيث عدد الكاتب فضاءاته وتغيراته الزمنية، و قد أعطاه أيضا، أبعاد نفسية وتاريخية في علاقته بالشخصيات، حيث يتحرك البطل " ناصر" في المكان والزمان ماضيا وحاضرا، فالمدينة لم تبق مجرد مكان مرجعي هندسي، بل هي انعكاس لصورة البطل الذي يرغب في التواصل الدائم معها لما تحمله من ذكريات مع حبيبته و أسرته فيقول " لم يعد باب غرفتي صامتا أمام أهلي، منغلقا على أوراقي و انطوائي. الآن صار عندي صوت امرأة حنون. أخبئه تحت لحافي، و أنزل معه مسحورا بكل نبراته و درجاته"[5].

قام البطل بوصف هذا الفضاء وصفا تعبيريا، مبتعدا عن الوصف التصنيفي، فهذا الفضاء بالنسبة له فضاء نفسيا، عكس من خلاله مشاعره المرتبطة بأمه و أخوته و حبيبته ، في صغره و كبره، فتتحرك فيه ذكريات الماضي فيحدث في نفسه، ذلك الوقع الأثير فتأخذ الفضاء تلك الرمزية، التي تعبر عن انفعالات الذات وأحاسيسها "فكل الأماكن لحظات عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها من الوحدة فيها تظل راسخة في داخلنا، لأننا نرغب في أن تبقى كذلك، فالإنسان يعلم غريزيا أن المكان المرتبط بوحدته

1 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 11.

2 Henri Mitterrand « préface » in Deni Bertrand, espace et le sens, paris, Amsterdam, Ed, Hadès, I Benjamin, 1985, p9.

3 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 172.

4علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 86.

5علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 38.

مكان من الحاضر وحين نعلم أن المستقبل لن يعيدها إلينا "[1] حيث تبقى لهذه الأماكن الخاصة بصمة خاصة باعتبار أن " الأمكنة هي نحن، وهي جزء من تاريخنا، بل هي التاريخ كله"[2].

ج. الموطن و مدار عشق الأنثى و التباس التخوم :

يبدو للمكان سطوة كبيرة في رواية "**سقف الكفاية**"، من خلال علاقة تأثير وتأثر بين المكان والشخصيات الرئيسية والثانوية، إذ يعد عنصرا أساسيا في تشكيل بنية هذه الشخصيات، كما أنه لا يتشكل إلا من خلال اختراقها له وظهورها فيه بمميزاتها، والأحداث، التي تقوم بها فيه، فالموطن يظهر فضاء وعاملا مهما يسهم في تشكيل صورة الماضي وملامحه، فهو قرين الذاكرة والذات والتاريخ وكذلك المرأة والحب، إذ تحضر صور الموطن "الرياض" من خلال تذكر الشخصية المحورية "ناصر" لسمات هذه المدينة وامتزاجها بصورة الأنثى "مها" فكلاهما مشابهه للأخر حد التماهي والالتباس، فيحضر الماضي ليعري كيان الذات، من خلال صدى الذاكرة، الذي أيقظته الأنثى فهي رمز الوطن ورمز الموطن الرياض. يقول ناصر" أدلف من بابها المغطى حبيبة. وأخرج بعد ساعتين فأفهم أيضا معنى أن يكون شوق ورغبة.. و تذكرة عودة"[3]" كنت هويتي في الوطن، و سأعتقل فيه إذا سرت بدونك"[4].

لقد أتاحت هذه الذاكرة الجسدية المرونة اللغوية اللامتناهية في سمات عشقية يتعذر الفصل فيها ما بين الصورتين هذه الألوان الإيحائية في الكلام أخذت أحجاما و أشكالا مختلفة في التعبير الوجداني الذي يثير الاستجابة الانفعالية فيعطي إحساسا أشبه بالسحر العاطفي اللامتناهي للقراءة و إعادة القراءة. يقول البطل" ليس عندي إيمان بغيرك، فكل المسافات التي أهرب فيها تقود إلى عينيك في النهاية. لأن الأوطان يا حبيبتي لا تستبدل في مصرف العملة، و لأن جوازات السفر لا تمحو الهوية، و لأن الحب لا يمكن تركيبته متى نشاء، مع من نشاء، بل هو الذي يختار العشاق، و يأخذ من أنفاسهم، و نبضات قلوبهم، و يعجنها ببعض، ثم يتركهم لبعضهم إما أن يؤمنوا أو يكفروا"[5]. يظهر "ناصر" محاصرا بالتباس تخوم العلاقة القائمة بين حبيبته والموطن في الكثير من صوره ووجوهه فصورة المرأة تلتقي بصورة الوطن لتخلق عالما روائيا متميزا تداعب فيه الحب الرجولي و البوح الأنثوي في ثنايا المتن الروائي.

وتبدو العلاقة بين الأنثى والمكان علاقة تداخل و تماهي فالأنثى هنا في تلاحم تام مع صور المكان ومراياه، حيث تلتبس طقوس عشق الأنثى بطقوس الاحتفاء بالمكان. وهو حب كياني، جمع بين الهوية والوطن، التاريخ والماضي، وهو الرابط القوي بين فضاء الثورة المدينة الوطن والمرأة، هذه العلاقة التي يشكلها الحب والحنين، هي الثنائية التوافقية التي تشمل المعلن والمخفي عن طريق التلميح دون التصريح، مستعملة الرمز والإيحاء لتعطي بعد جماليا لجسد النص الروائي. يقول البطل " كم هو الحب في الرياض عنيف، لأنه مدفوع بالثورة على كبت متوارث، و كم هو خائف أيضا، لأن مصير الثورات التي لا تنجح هو الإعدام" [6].

تمثل "مها" نموذج أنثوي متمرد للفتاة السعودية، وهي رمز للصوت الأنثوي الذي يواجه سلطة الذكورة فالمجتمع العربي من خلال التجاوز و المواجهة ، **و قد أسهت تجربتها العشقية في ملئ كيانها عشقا وحبا وحرية، بمنحها فرصة تجاوز عطبها العاطفي خارج خارطة الخوف العربي بعيدا عن الذعر والخوف والرقابة مع حبيبها، من خلال تغيير فلسفتها في الحياة إلا أن** هذه الإسقاطات تدل دلالة واضحة على أن إدراك "مها" لبيئتها وفهمها بطريقة تجعلها تتخذ من الزواج حلا لها في النهاية.

د. الوطن و الذات و خسران الرهانات :

تتمثل التجربة الروائية للكاتب محمد حسن علوان من خلال جدلية الوطن السعودية، إذ تبرز جل مظاهر تأزم الذات وصراعاته وتشظي أسسها على كل الأصعدة. وقد سعى الكاتب إلى بلورت إشكاليات الذات المأزومة لتشكيل عالم روائي متخيل، من خلال استثمار المادة السردية بقرائنها وتأثيثاتها المشهدية واستنطاق التاريخ و الماضي، الذي عاشته الشخصية.

1غاستون باشلار:جمالية المكان، ترجمة غالب هلسا. ص 40 أورده محمود الضبع ضمن مقال، تشكلات الشعريّة الروائية 2000م، ص 328.
2النابلسي شاكر: جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1994م : ص 69.
3علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 251.
4علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م ، ص 248.
5علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م ، ص 239.
6 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 173 .

إذا اشتد اختناق الذات وتخبطها بين الحاضر و الماضي، إذ تكشف الشخصيات الروائية في مدونة بحثنا عن خلل الذات وعريها، فتبدو الذات غير قادرة على تحقيق كيانها و وجودها، و يتجسد ذلك من خلال شخصية البطل الذي يحمل ذاكرة معطوبة، فيستحضر ماضيه بعد أن خسر رهانه على الحياة و خسر حبيبته و هاجر إلى المنفى كندا بعد أن شكل الوطن عائقا له في ممارست علاقته بحبيبته مها فيقول" كنت أعلم أن لقاءاتنا أكثر بكثير من المعدل الذي يمكن أن يلتقي به شاب فتاته في مدينة مثل الرياض"[1] "هل أعود إلى الرياض قبل أن تعودي إلي؟ أي مدينة موحشة استحالت الرياض بعدك"[2].

عمد الكاتب إلى اختراق أحكام البيئة وضوابط أعرافها الأخلاقية، من خلال تصوير انقلاب القيم والأخلاقيات تحت مسمى الشرف والعفة والدين يقول "مللنا اشتهاءنا الصامت في الأماكن العامة المحفوفة بالفضائح. أين يمكن أن أجلس مع حبيبتي في مدينة كلها تخنق الحب و تحبسه في عروقنا؟" [3]. "كم تورثنا اللقاءات العابرة توترا كبيرا في مدينة مثل الرياض، هنا الجميع رقباء"[4].

وتتميز صورة الوطن بالطابع الإشكالي، من خلال الحديث عن تجربة حرب الخليج و العراق حيث تتمثل الأولى في الوطن الفردوس، الانتماء، الهوية، الحنين، الحب، الناس والطبيعة، والثانية الوطن المحنة، الموت، القمع، السجن وذلك عبر التاريخ الوطني المأساوي الذي عاشته دولة العراق في حربها مع الخليج أثناء اشتعال الفتنة في العالم العربي، ما يكرس خسران الوطن لرهاناته على التاريخ، من خلال ما جسدته أشكال السرد وأنساق الخطاب ومستويات اللغة، قصد بلورة رؤية الذات في علاقتها بالعالم، وصياغة الموقف النقدي للكاتب محمد حسن علوان من الراهن الاجتماعي والسياسي في تحولاته المتأزمة التي اتسم بها الوطن العربي في تسعينات القرن الماضي.

ثانياً: المنفى وطنا بديلا

أ. المنفى أفق وجود :

شكل فضاء المنفى أحد أهم مقومات المتن الروائي في رواية "**سقف الكفاية**"، حيث تعددت المقاربات، التي رامت تحديد هذا المفهوم وتنوعت، إلا أن المنفى في المتن الروائي لمدونة بحثنا، أصبح كائنا مفهوميا مختلف الأبعاد يتعالى على التحديد السطحي، الذي يفيد الغربة والأبعاد والجغرافيا بل أصبح عنصرا جماليا ودلاليا عبر فعل الكتابة، الذي تتحكم في إبداعه مختلف الأدوات الفنية وتقنيات الخطاب المتصلة به، حيث أورد الكاتب فضاء المنفى فضاء ذهنيا استرجاعيا يتفاعل فيه كل من الواقعي والمتخيل، فأخذ بذلك أشكالا و صورا متعددة تغنيه عن الصورة السطحية المتداولة.

إذ يمثل المنفى سؤالا مركزيا يتحول بفعل تواتره في مدونة بحثنا إلى مكون سردي ونقدي يسهم في تشكيل عوالم الحكي، نظرا لما يقيمه من علاقات تقاطب مع الأنا و الآخر وإشكاليات الذات، التي تنشأ من رحم سؤال الهوية، لصياغة موقف نقدي من الراهن الحضاري والاجتماعي والسياسي والتاريخي، وتحولاته المتأزمة مع الشخصيات الروائية وهي رموز شفيفة استثمرها الكاتب ليعبر، من خلالها عن تجربة المنفى برؤية فنية واعية تنفتح على شرفات وأفق متميز في الكتابة، لتبني خطابا روائيا ينزاح عن السائد السردي، لينتج نصا مختلفا ومتميزا منفتحا على محنة الوطن و المنفى والأنا والآخر، عبر تداعيات ذاكرة جريحة ماضيا و حاضرا .

وينفتح فضاء المنفى في المتن الحكائي على العديد من الرؤى السردية على مستوى الكتابة الروائية، التي تحيل إلى جل عناصره وبناه الداخلية والجمالية، باعتباره مدار في تجارب الشخصيات الروائية، فالمنفى فضاء يدخل في علاقة جدلية مع الوطن ليرسم علاقات مختلفة مع الذوات، عبر توليد العديد من الجدليات المختلفة، التي استثمرها الكاتب في تشكيل عوالم نص يضج بالشعرية وينفتح على آفاق متعددة من جمالية الصور ولغة الكتابة و التقاطبات المختلفة من مثل الأنا والآخر، الحياة والموت، السجن والحرية، الانتماء واللاإنتماء، القبول والرفض، الذاكرة والنسيان و التي جسدها كل من البطل ناصر و هجرته من وطنه

1 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 172.
2 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 287.
3 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 170.
4 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 54.

الأصلي السعودية إلى المنفى كندا و صديقه العراقي ديار الذي أجبر على مغادرت وطنه العراق قصرا بعد أن فقد أهله. يقول ناصر" عندما يلتقي الغرباء قلما يتحدثون عن غير الوطن. إنهم يتبادلون الجراح خفية، و يستعيدونها عند التفريق، حتى يلتقوا مرة أخرى [1].

وتعمد الذات إلى التحرر من الوطن إلى فضاء المنفى، والذي يمثل مسرحا للوقائع والأفكار والهواجس عند الشخوص، من خلال تمثل الكاتب لعلاقة المنفى بالعناصر الروائية المختلفة، كالزمان والشخصيات والراوي والحدث، ويفضي ذلك إلى إضاءة وظائف و أنماط المكان في سرد فضاء المنفى ودلالاته، **وفي علاقة الأنا والآخر** لما تضفي إليه من تعدد للقيم، مثل الحرية والعدالة والانفتاح على الآخر مع رؤى جديدة بين قيم مترسبة وأخرى جديدة مكتسبة و بانفتاح آفاق معرفية وثقافية أوسع وأعمق.

و يمثل المنفى في صورته الإيجابية في المتن الحكائي لمدونة بحثنا واقعا جديدا وحلما وأفقا ومدى، حيث تتخذ الشخصيات الروائية من المنفى فضاء بديلا للوطن السعودية و العراق، تمارس فيه وجودها محاولت تجاوز انجراحات الماضي ومأساته، التي عاشتها في الوطن بعدما أصبح زنزانة سجن وفضاء يشعر فيه الأنا السعودي العراقي بهواجس القلق والخوف والرعب ووحشة المجهول يقول السارد" سنوات قليلة هي كل ما تحتاج إليه هذه المدينة لتصبح وطنا. إنها ترشو غرباءها بما يفقدون. توزع ولاءنا على أرصفتها الباردة، و تغرس فلسفتها الدافئة خنجرا في صميم قومياتنا و إيماننا بالوطن[2].

ويشكل المنفى بؤرة سردية وفضاء روائيا حاو لتجارب الشخوص و رمزا معبرا عن نفسيتها ومنسجما مع رؤيتها للحياة والوجود، و هو الفضاء الجديد الذي تستمد منه وجودها وكينونتها بعد كل الانكسارات التي عاشتها و بعد خسرانها لرهاناتها على الحياة و الوجود، فاتخذته أفقا لوجودها من خلال عملية بحث مضنية عن كيانها فيه. يقول السارد متحدثا عن المنفى" إنها تفهم جراحنا، و تدرك مناطق البرودة في عظامنا، و تغطينا بالحنين، بالجمال، و بعض البلاد تنتج فائضا منه. الحنين لا ينمو في الجوع و الكبت و العزلة، إنه يحتاج إلى تفهم الشمس قبل ضوئها و حرارتها[3].

بات المنفى في العقود الأخيرة أحد أبرز القضايا التي تشغل الأدباء والمثقفين العرب، نظرا إلى ازدياد المنفيين، قسرا أو طوعا، أو هربا من بطش الأنظمة السياسية والمهانة والفقر، وبحثا عن مكان للعيش الحر واللائق، وهو ما نلمسه، من خلال تجارب الشخصيات في مدونة بحثنا، **و رحلتها في منفى بعد أن أصبح المنفى فضاء للحرية والأمان عكس الوطن الذي قيد إرادتها، فتخلق من المنفى عالما جديدا، ورحلة لاكتشاف الذات والآخر و محاولة للتملص من كل أشكال الاضطهاد و القمع. يقول البطل" كل إنسان عربي يطأ لأول مرة هذه الأرض مهاجرا من وطنه إنما يؤرخ لظلم ما. كم من المحاكم نحتاج حتى نعيد كل مهاجر إلى وطنه؟ و كم من العمر سيكفيهم انتظار لهذه القضايا الأبدية؟ هو ديار، متظلم آخر في المنفى"**[4]

.

يحضر المنفى أيضا أفق وجود لحاجة البطل الماسة إليه فيقول " ربما كنت أحتاج إلى ذاكرة أخرى و بلد آخر، أنا الذي التحفت بالغربة قبل أن يفقد قلبي حزنه، و قبل أن أجف في صحراء بلادي"[5].

وتعتبر تجربة المنفى منعرجا في حياة الشخصيات الروائية، التي تجد فيه كينونتها ووعيها بالذات والوجود والعالم، ففضاء المنفى يمثل دعامة أساسية لبناء الكيان والشخصية، و لتحقيق طموحات الذات المعطوبة وتغير مسارات حياتها. يقول حليم بركات في هذا الصدد "إن وجودنا في الغرب له أسباب متعددة أما الأسباب الموضوعية فلا بد أن تعيدنا إلى

1 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 189.
2 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 284.
3 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 284.
4 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 188.
5 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 186.

الأوضاع السياسية القائمة في بلادنا التي تعيش في تخلف اقتصادي، والمثقف عندما يكون في بلاده ويشعر بحاجة إلى الأكسجين فأنه لن يجده للأسف إلا في الغرب" [1].

إن هذا الفضاء الجمالي له صلة جوهرية بنمطية الأداء الوصفي الذي يصوره الكاتب مع الشخوص الروائية حيث تتسع دائرة الحلم والتمرد في فضاء المنفى مع شخصية "ديار" و "ناصر" والتي عانت من الحزن و الكبت العاطفي واختناق الذات تحت إسار الأعراف والتقاليد. حيث يحضر المنفى هنا أفقا للحرية والحب والعشق يمارس فيه الفرد إيقاع الحياة بكل عنفوان. يقول ديار " صار حزنكم أيضا ترفا تستمتعون به، كأنك لم تفارق وطنك يوما و أنت تعلم أنك لا تقدر أن تعود إليه"[2].

ويحضر المنفى تيمة أساسية ومركزية يحضن تجارب الشخصيات ويرسم أفق وجودها ومستقبلها فهو يمثل مكانا للألفة والحرية والمساواة من خلال تجارب الشخصيات فيه وهو أيضا فضاء للعلوم والثقافة والجمال الطبيعي والعشق حيث، تتخذ منه الشخصيات وطنا بديلا وسبيلا لترميم كيانها و ذواتها، من خلال كشف جمالياته، واستنطاقه، وتأويله، إلى ممارسة فكرية، غايتها كشف الظواهر الثقافية وهو ما انفتحت عليه عوالم محمد حسن علوان الروائية من خلال تفاعل الثقافات ومفهوم الحرية والرؤية غير المتحيزة والابتعاد عن مفهوم الهوية المغلقة، إلا أن الكاتب لم يختصر صورة المنفى في وجهه الايجابي فقط بل تجاوز ذلك إلى إعطاء صورة أخرى مضادة، وهي صورة اغتراب الذات فالمنفى يشوبها الحنين إلى الوطن الأصل.

ب. المنفى و تغريبة الذات:

تعد أهم إشكالات المنفى، فقدان الخصوصية والانتماء، و الوقوع في مأزق الانتماء المزدوج، حيث تُشدد فكرة المنفى دوما على غياب الوطن وعلى النسيج الثقافي، الذي شكل الذات الفردية والجماعية ومن ثم فأنها تتضمن تمزقا لاإراديا أو مفروضا للعلاقة بين الأنا و الآخر ، من خلال التطرق إلى مشكلة الهوية وغربة الذات، حيث يحضر المنفى مكانا معاديا في نصوص مدونة بحثنا على خلاف صورته الأولى فضاء للحرية والألفة، فهو يمثل حالة من الاقتلاع والاغتراب المكاني والنفسي، وهو الإحساس التراجيدي للتعبير عن الوجع الدفين حول أزمة الذات الوجودية إذ "تكمن لوعة المنفى في ضياع الصلة مع صلابة الأرض وما تنتجه من إرواء وإشباع من هنا ما نجده من أنّ العودة إلى الديار لا يمكن أنّ تكون موضوع شك"[3]، حيث تحاول الذوات صنع جسر من التواصل والحنين بين المنفى و الوطن فلا تجد سوى الذكريات ملاذا لتعوض حالة الفقدان و الاغتراب ما جعل تقنية الاسترجاع غالبة على سرد المنفى في الفصول "**سقف الكفاية**" .

ويتخذ الكاتب من تيمة المنفى مرتكزا أساسيا وقضية جوهرية في الخطاب السردي، وذلك من خلال منظورات مختلفة ومتعددة للمنفى فيكسبه صورا وملامح متنوعة تساهم في بلورتها نظرة الشخصيات وعلاقتها بفضاء المنفى، من خلال صوره السلبية وإسقاطاته على الذات المغتربة.

ويضج الخطاب الروائي بحمولات نفسية وجدانية وعاطفية تختزنها مفاهيم الرحيل والحنين والوطن، حيث تصور حالة الذات المتأزمة والمغتربة وصراعها مع الآخر المنفى، وذلك من خلال تصوير التحولات النفسية والعاطفية والفكرية، مبرزة مدى تأثير هذا فضاء في ذات الشخصيات، التي غلبت عليها هواجس الوحشة والوحدة والغربة.

كما مثل المنفى **كندا** وبالتحديد مدينة "**فانكوفر**" وهو المدار والمكان المهيمن في مدونة بحثنا بعد عزم البطل إلى استكمال دراسته خارج أرض الوطن فيقول" ليلة كئيبة، تدفع بعجلة الذكرى إلى ليلتي الأولى في نانكوفر قبل شهر" أضع خواتي الأولى خارج بوابة المطار، رصيف الغربة الأول" لماذا اخترت مدينة مطرية كهذه، أنا الذي أفتقد الدفء كثيرا و لماذا المدينة التي لا أعرف فيها أحدا و لا أحفظ فيها شارعا"[4].

1 بركات حليم : غربة الكاتب العربي دار الساقي للطباعة والنشر2011م، ص 282.
2 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 186.
3 سعيد ادوارد : تأملات حول المنفى ومقالات أخرى 1 ترجمة ثائر ديب دار الآداب – بيروت2007م، ص 124.
4علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 106.

وتمثل الغربة حالة متمكنة من شخصية "ناصر" إذ تكشف الشخصية عن مدى أثر هذه التجربة واغترابها، فالمنفى لم يزدها إلا جرحا واغترابا وحزنا وعدم استقرار، فيغدو البطل متشبثا بتلابيب ذاكرة جريحة يستدعيها بحس تراجيدي، في محاولة لإيجاد توازن مفقود. يقول " المدهش أن جراحات الغربة حجمها ثابت. ربما كان أفضل ما تفعله الغربة بنا أنها توقف تمدد الجرح. أما الشفاء، فمعضلة مستحيلة . و المدهش أيضا أن جراحات الغربة هي الجراح الوحيدة في الحياة التي يمكن أن يرثها الأبناء من آبائهم دون أن تتدرج تحت قوانين الوراثة [1].

ينشأ الخطاب السردي من رحم إشكالية الانتماء، التي تعانيها الذات المرتحلة، فهي لا تنفك عن رسم ملامح وطن بديل، وأن كان على فضاء التخييل، فينزاح الوطن، من كونه تلك الرقعة الجغرافية التي نسكنها، إلى فكرة تسكن الذات وتشيدها في أعماقها، ما يكشف عن معاناة الذات وعطبها الروحي.

كما تتجسد غربة الذات من خلال تجربة شخصية ديار و وطنه العراق و منفاه كندا فيقول ناصر"ربما نسيت الجدال العربي في جملة ما ضيعت الغربة من مآثري العربية الأصيلة، و لكن غربته كانت أولى بذلك و قد طالت سبع سنوات " و يقول ديار أيضا "في الشرق وطن يحترق، و أنا بعض هشيمه المتطاير"[2].

قدم الكاتب محمد حسن علوان تأطيرا نظريا لجماليات المكان في سرد فضاء المنفى الروائي، وتطبيقا لتشكلاته ودلالاته ووظائفه باستخدام العديد من التقنيات السردية وخاصة الشخصيات وعلاقتها بالمكان، من خلال بيان حالة الذات الشعورية والنفسية إذ " يقضي المنفي معظم حياته في التعويض عن خسارة مربكة بخلق عالم جديد يبسط سلطانه عليه ولذا ليس من المدهش أنّ نجد بين المنفيين كثير من الروائيين، ولاعبي الشطرنج، والناشطين السياسيين، والمفكرين وهذه المهن جميعا لا تتطلب سوى حد أدنى من التوظيف في الأشياء إذ تضع الحركة والمهارة في المقام الأول غير أنّ من المنطقي القول أنّ عالم المنفى الجديد هو عالم غير طبيعي يشبه اللاواقعية التي تتسم بها عالم القص والتخييل"[3]. "ومهما حقق المنفيون من نجاحات، فأنهم على الدوام أولئك الشذاذ الذين يشعرون باختلافهم (حتى وهم يستثمرونه في كثير من الأحيان) على أنه نوع من اليتم"[4]. و هو حالة من الانشطار والتشظي، التي يعيشها الشخص بكثير من العزلة والشقاء والقسوة.

ويكون المنفى بذلك ظاهرة عالمية، تتحول فيه التجربة الإبداعية إلى وعي بالذات المغتربة في محاولة من المنفيين لتجاوز محنتهم وخسارتهم وخرابهم الروحي، من خلال ممارسة المهارات والهوايات وتطوير قدراتهم الذاتية و مواهبهم، من أجل خلق عالم جديد لترميم كيانهم والتخفيف من شدة غربتهم نظرا لوجود الكثير من المفكرين والروائيين والرسامين وأصحاب الرأي والفكر والثقافة منفيين عن أوطانهم لأسباب مختلفة إما طوعا أو قسرا .

ويكشف التنوع السردي لفضاء المنفى في "**سقف الكفاية**" عن جماليات التصوير، من خلال علاقة السرد، بالفضاء و علاقة الواقع بالمتخيل، من أجل خلق سيرورة جلية بين وعي الكاتب ووعي الشخصيات وقدرتها على التعامل مع الآخر، خصوصا و أن النص الروائي يتحدث عن النفي في أبعاده المكانية و الزمانية والنفسية فينعكس على البناء السردي و نسقه، وقدرة الكاتب على الكشف عن تجليات النفس الإنسانية وهي تقيم الصلة بين ذاتها والآخر خاصة أن الشخوص الروائية المنفية و المغتربة تعرضت للكثير من القمع السياسي، لذا كانت تحاول الفكاك من أسر المعاناة و الامتهان ومحاولة خلق عالم جديد يضج بالحرية والألفة.

وتعتبر محاولات المنفيين للنجاح في إعادة تشكيل ذواتهم حسب مقتضيات المنفى وشروطه، حالة مستعصية نظرا لعدم قدرتهم على التأقلم فيه. فالمنفي هو من أخفق في مد جسور الاندماج مع منفاه ، فحياته متوترة، ومصيره ملتبس، وهو ذات ممزقة، هُتكت أحلامها، وخُرّبت طموحاتها، فلا سبيل إلى إعادة تشكيلها في كينونة منسجمة مع نفسها أو مع العالم الجديد هذه الاسقاطات تدل دلالة واضحة على أن إدراك الكاتب لبيئته وفهمه لحالات المنفى بطريقة تجعله يجسده عبر عمل روائي إبداعي له

1علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 189- 190.
2علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 191.
3 سعيد ادوارد : تأملات حول المنفى ومقالات أخرى 1،ترجمة ثائر ديب دار الآداب بيروت 2007م ، ص 127.
4 سعيد ادوارد : تأملات حول المنفى ومقالات أخرى 1،ترجمة ثائر ديب دار الآداب بيروت 2007م، ص 127.

القدرة على استنطاق بواطن الإنسان و هواجسه الفطرية ، عبر نماذج انفعالية ذاتية مبتكرة، كانت رمزا للعاطفة الجياشة ، و الوعي الذاتي ، مصحوبة بنوازع وجدانية كانت أقرب إلى النفس والعقل منها إلى عالم المتخيل.

ج. المنفى و الكتابة :

تشكل تيمة الكتابة في شتى تجلياتها، سؤالا مهما في رواية "**سقف الكفاية**"، إذ اتخذ منها الكاتب مرجعا أساسيا لممارسته الروائية ولعوالمه الحكائية، التي تتأسس على أشكال من المكاشفة والاعتراف والتذكر والبوح، والتي يتداخل فيها الذاتي والتاريخي، الواقعي والمتخيل الماضي والحاضر الوطن والمنفى.

ويتميز فعل الكتابة في نصوص مدونة بحثنا بطابعه الإشكالي، وذلك لتشكله في أكثر من صورة والتباسه بأكثر من حالة "ليبقى مشروعا مشرعا على اللامتناهي من الاحتمالات والتوقعات، يستمد ماهيته من ذاته ومن المرجع، ويكتسب بلاغية لا من كتابة المداد بل من كتابة البياض التي تشكل نسغ وجوده، وعلة ديمومته. "[1]، ففعل الكتابة يقترن بالعديد من التيمات منها الذات الأنا والآخر الوطن والمنفى، حيث سنتناول في هذا السياق إشكالية المنفى والكتابة نظرا لتواتر وأهمية هاتين التيمتين وحضورهما بكثافة في الخطاب السردي.

يعتبر فضاء المنفى قادحا للكتابة، إذ يطرح أسئلة جذرية ووجودية في علاقة الأنا بالآخر وإشكالية الهوية، حيث يستمد هذا الفعل قيمته الخاصة من الدور الوظيفي، الذي يضطلع به وذلك لتمكين الذات من إثبات كيانها وهويتها الخاصة واستعادة كل ما فقدته في المنفى، كما يمثل فعل الكتابة عبر هذا الفضاء أداة وعي الذوات بمحيطها وبالنقلة المكانية والحضارية فيه، حيث يتلون بهواجس الأنا وانفعالاتها. كما تعنى الكتابة بطرح تخييلي ينشأ من رحم إشكالية الانتماء والهوية، التي تعانيها الذات المرتحلة والشخصيات في علاقتها بفضاء المنفى ورحلتها فيه، فالكتابة في علاقتها بالذات المنفية هي أداة إثبات لكيانها المختلف وتأكيدا لهويتها الخاصة وحفظا عليها من التلاشي والتهميش، وهي سبيل الذات إلى الوعي بذاتها في الوجود وأداة دفاعها عن هويتها المختلفة والمتميزة. يقول البطل ناصر " جلست أكتب، أو أكمل ما بدأت بكتابته في فانكوفور، فقد جاء قدر عودتي طارئا و إلا لأتممت كتاباتي هناك كما كنت قد قررت، في العزلة الباردة"[2].

وقد جاء فعل الكتابة عن المنفى في المتن الحكائي لمدونة بحثنا قرين الذاكرة الفردية والجماعية، ما عمق الإحساس بالوحدة والحنين إلى الماضي والوطن فأصبحت الكتابة هي مرفأ الذكرى، الذي تحتمي به الذات من عزلتها ووحدتها في صقيع المنافي من خلال مواصلة البطل ناصر لتجربة الكتابة في المنفى متحدثا عن تجربته و تجربة صديقه ديار، حيث التجأت الذات المثقلة بالهموم إلى الكتابة عبر حبال الذاكرة الموصولة بالماضي ما عمق حالة الإحساس بالألم والاغتراب لدى البطل، ما يعلل حالة تأزم الذات التي تهرب من سقم الواقع والمنفى إلى الكتابة وهي وامتداد للأنا عبر مراحل ودوافع مختلفة عاشها البطل في وطنه و منفاه و عبر تجارب الشخصيات القريبة منه.

يحضر فعل الكتابة ملاذا للذات لتعويض خسرانها لرهانها مع الوطن، باعتبارها تعيش منفى روحيا ومكانيا في آن، إذ" تستمد خلافيتها من كونها خطوة تاريخية حاسمة باتجاه تملك اللغوي وتأسيس مساحات كلامية تمثل فضاءات تجريب وإثبات وجود غير الوجود، قادرة على بلورة وعي أصيل بالأنا وبالعالم، حتى وأن كان ذلك الوعي في مرحلة البدايات وعيا بالنفي واللاإنتماء، فالكتابة تتحول دائما إلى فعل تبعيد نقدي كفيل بأن يثبت الوجود الكامل حتى لمن يتكلم عن ذاته المنفية"[3].

ويعمق المنفى إحساس الذات لخسران رهانها على الوطن، وذلك من خلال تعدد أشكال المعاناة النفسية ما يدفعها إلى إعادة النظر في علاقتها بالعالم وبالآخر فيكون اللجوء إلى الكتابة سبيلها إلى تصريف أشكال القهر الناجمة عن إخفاقاتها وإلى تعويض ما خسرته من رهانات الوجود وذلك باللجوء إلى للكتابة، التي تمكنها من إضفاء المعنى على وجودها المستلب، باعتبار " أن الرواية هي مفتاح الأوطان المغلقة في وجهنا، أنه التعريف الأنسب للرواية العربية المعاصرة، التي منذ جيلين وأكثر تولد في

1 بن جمعة بوشوشة : سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، الطبعة الأولى 2005م، المغاربية للطباعة والنشر ص 68.
2 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م ، ص 11.
3 الطريطر جليلة : مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (بحث في المرجعيات) مركز النشر الجامعي، تونس مؤسسة سعيدان للنشر، 2004م، ص 22.

المنافي القسرية أو الإجبارية، موزعة على الخرائط العربية والأوروبية. هناك حيث ينتظر عشرات المبدعين العرب موتهم، حالمين أنّ يثأروا يوما لغربتهم، بالعودة في صناديق مفخخة بالكتب "[1].

لقد تعددت أشكال الكتابة، التي عمد الكاتب إلى استثمارها في تشكيل فضاء المنفى من استثمار للذاكرة والحلم والخيال إلى إبراز رؤى الشخصيات في تعاملها مع هذا الفضاء، وذلك بالرجوع إلى الرؤية السياسية لوطن المحنة والفتنة، من خلال النموذج العراقي ونظرا إلى اختناق الأنا العربي مقارنة بالآخر الغربي فالوطن يضع تلك القوانين الصارمة من قيم أخلاقية وأعراف اجتماعية ودينية وأنماط سلوكية وإسار للعادات والتقاليد، ما يجعل الاغتراب حالة متمكنة من الأنا العربي وصفة دالة عليه .

وقد اتخذت الشخصيات من المنفى وطنا بديلا وأفقا جديدا لحياتها ولوجودها، باعتباره فضاء للعشق والحرية في شتى طقوسها وتجلياتها وفضاء للجمال الطبيعي وأيضا للثقافة والعلوم.

و يتعالق كل من فضاء المنفى وفعل الكتابة ليصبح المنفى قادحا للكتابة بعد تعرض الذات إلى أزمة متعددة ناجمة عن الكثير من الخيبات، التي كابدتها لتهرب بذلك إلى الكتابة قصد التعبير عن معاناتها في متاهات الغربة منتقلة بين ألم الوطن وأوجاع المنفى، وبالمقابل تطرح هذه الكتابة بدائلها، التي تجعل من الهوية طاقة تزداد بالانفتاح والحوار مع الآخر، وبمد جسور المثاقفة معهم، لتأمين العبور من حالات الانعزال والانغلاق، إلى أشكال أكثر انفتاحا للهوية، والتي أضحت في منظور الذات المنفية فضاء يحيا بالفعل والتفاعل وليس بالتخوف و الانغلاق.

فتصبح الكتابة عن الوطن والانتماء آلية عبور للهويات والكينونات ، وليست آلية طرد للآخر وقطع للعلاقات، حيث اتخذ الكاتب من مفاهيم الهجرة والاغتراب مفاتيح لخطابه، ومن ثنائيات، الأنا والآخر، معالم لتيماته النصية ومنطلقاته الفكرية.

ومن بين أبرز البدائل التي ترشحها هذه الكتابة، تفكيك إشكالية الهوية، التي لم تعد تراكما لما ورث عن السلف، بل صارت منجزا يتغذى بتفعيل العلاقات مع الآخرين في العالم. وقد أضحت كتابة المنفى بهذا الطرح آلية تفكيكية تنحو إلى تغيير إحداثيات الوجود الموروث، الذي ما انفك يعاش على ترسبات ثقافية محلية متمركزة حول ثوابت قومية لا دور للإنسان فيها إلا حراسة قلاعها العتيدة.

ثالثاً: الوطن و المنفى نصا روائيا

سنسعى في هذا الفصل إلى استجلاء مكونات الخطاب السردي في رواية "**سقف الكفاية**"، باعتبار أن الخطاب "يستوعب أبنية خطابية متعددة : المسرحي، والشعري والديني، والحكائي والشفوي والصحافي والسياسي والتاريخي ... ويأتي تداخل الخطابات هنا وتعددها في إطار انفتاح الخطاب الروائي عليها، لتقوم بوظائفها في مجرى الخطاب، وبتضافر مع الطرائق الموظفة في بنائه، وهذا ما يجعلها تسهم جميعا، وكلا بحسب خصوصيتها في إثراء عالم الخطاب الروائي وتشكيل مكوناته، وأخيرا تحقيق نوع من الانسجام في بنية الخطاب"[2]، وهي البنية التي تجعل من النص الروائي في مدونة بحثنا ينفتح على أفق نقدي حداثي مغاير للسائد السردي، كما سنستجلي خصائص اللغة الروائية وذلك نظرا للاشتغال المكثف للكاتب على " اللغة بأفق حداثي يتم في ضوئه التعامل مع اللغة لا كأداة إبلاغ فحسب وإنما كفضاء إبداع يسهم في شعرنة الخطاب، وتكثيف دلالته الفكرية وأبعاده الجماليّة، مما يجعل الرواية تنفتح على أكثر من احتمال وتوقع . وهو ما يكسب القراءة طابعا خاصا ينهض على السعي إلى تفجير الأبعاد الخفية في النص، خاصة إذا كان هذا الأخير يتميز بسرده التشعّب، ولغته الرمزية "[3].

وهو يعطي للنص خصوصية وتميزا واختلافا نظرا لتداخل كل من السردي والشعري، الواقعي والمتخيل. ولاحتوائه على الكثير من أفانين البلاغة والمجاز ولاستعارة والإيقاع والموسيقى والتكرار وثراء المعجم، خاصة المعجم النفسي، الذي يطبع الكتابة بجمالية خاصة.

1 مستغانمي أحلام : مجلة أيام الرواية من مؤتمر الرواية العربية بالقاهرة "البقاء على قيد الحياة " حوار مع محمد محمود 2007م، ص 9.
2 يقطين سعيد : القراءة والتجربة، دار الثقافة الجديدة، الدار البيضاء 1999م، ص 295.
3 بن جمعة بوشوشة : سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، الطبعة الأولى 2005م ، المغاربية للطباعة والنشر ص 20.

أ. الوطن و المنفى و أنساق السرد:

كل خطاب روائي يتضمن بنيات أو عدة مكونات من بينها المكون السردي و"يعرف السرد أنه متواليات حكائية، وهو ما يدل على أنه نظام متماسك مهما بدت عراه متتابعة حينا أو متداخلة أحيانا أخرى. وقد أبرزت الدراسات البنيوية خاصة مدى تماسك الحكي وانتظامه عندما أرجعته إلى عناصره البنائية الثابتة، سواء في حال التواتر السردي المنطقي الآخذ بالأسباب الخارجية أو بالزمن الفيزيقي، أوفي حال تكسير السير الفيزيقي بالانتكاس، والتوازي، والتداخل وأهم تلك الثوابت: حالة البداية التي تعرف الاستقرار، وفيها يكون السارد أمام حال من التقديم عالمه الروائي للقارئ وتمهيده الفضاء الروائي المتخيل أمام شخوصه الروائية[1].

ويعد السرد أيضا شبكة من التقنيات وبؤرة من الديناميات والاستراتيجيات في الخطاب الروائي عامة، إذ تشكل البنية السردية مكونا مركزيا من مكونات الخطاب الروائي في تجربة محمد حسن علوان الروائية، كما يعتبر السرد إجراء تقنيا وشكليا وملمحا مميزا من ملامح التجربة الإبداعية الجمالية في فصول مدونة بحثنا إذ سنتبين حركات السرد في تيمة الوطن وفي علاقاته العضوية بالبنيات النصية وتعالقها فيما بينها وتفاعلها في صوغ لعبة التخييل وإنتاج عالم روائي متخيل قائم على كيفية تناول السرد لتيمة الوطن، باعتباره تيمة أساسية في "**سقف الكفاية**". وهو سرد تنصهر فيه كل الوسائل السردية من متخيل وذاكرة ووقائع لتشكيل الخطاب الروائي.

وجاء سرد الوطن في المتن الحكائي حديثا ذاتيا قوامه الذاكرة، التي تحمل في طياتها ذكريات الماضي، من خلال تجارب الشخصيات وقد تجسد لنا أول مثال مع الشخصية الرئيسية "ناصر" الذي يسرد لنا تجربته مع حبيبته ثم سفره إلى المنفى كندا و"يتمثل الزمن في المحكي الذاتي، ومحكى الذات (شخصية متخيلة، شخصية روائية) زمن لا منتهى، ولا يمكنه أن ينحصر في الاستعادة والاسترجاع، بل يمكنه التطور والتنامي داخل الحكاية ذاتها، كما يعبر عن حاضر الحكاية، ومستقبلها، في صورة استباق زمني ...[2].

ويعمد البطل "ناصر" في حديثه عن حياته و تجربته مع الوطن إلى تقنية التناوب في السرد واستدعاء تواريخ وحرب الخليج ، من خلال ذكر أحداث حرب الخليج، فنقل السارد وقائع وأحداث للمعاناة الفردية والجماعية، التي كابدها الشعب الكويتي في ذلك الوقت من قتل واغتيال ، كما جاء السرد الذاتي للبطل مشحونا بانفعالات الذات و حالتها شديد الارتباط بهواجس النفس و بواطنها، من خلال تذكر أيام الصبى واسترجاع صورة الأم والبيت القديم ويمثل هذا النوع من السرد رحلة إلى داخل الذات واستبطانها عبر الزمن الاسترجاعي للحكاية.

وجاء هذا السرد ضربا من تأصيل الهوية، من خلال الحديث عن العادات والتقاليد والأعراف في السعودية وتحديد ملامح المجتمع السعودي، كما كشف سرد الوطن، من خلال المتخيل السردي الروائي عن صورتين للوطن، من خلال محكى الشخصيات، "ناصر" و"ديار" إذ تتمثل الصورة الأولى صورة الوطن الفردوس وقد ركزت فيها الشخصيات على السرد الذاتي، الذي يتلون بأحوال الذات، التي تحن وتشتاق إلى الوطن السعودية و العراق، لما تحمله من ذكريات حب و حنين . وقد كشف السرد في هذا الصدد عن انفعالات الذات مبينا علاقة الأنا بالوطن الذي يمثل كينونتها و هويتها.

أما الصورة الثانية فهي صورة الوطن الجحيم، والتي تجلت من خلال سرد تجارب الشخصيات المتمثلة في العديد من الأحداث والوقائع والتواريخ منها الحرب والاغتيال والقتل... يقول ديار" عندما يعجز الوطن أن يمنحنا أكثر من صدوع ضيقة لدفن أبنائنا، هل نبقى؟"[3] و" هذا القسم السردي منح الحكاية زمنين زمن الاسترجاع والذاكرة، وهو زمن الماضي المنتهى في الواقع والمستمر في الذاكرة وفي الحكاية كذلك في صورة التحيين عبر قنوات التعليق والتوضيح والتفسير ويتجلى ذلك في غاية الكاتب

1 معتصم محمد: بناء الحكاية والشخصية في الخطاب الروائي النسائي العربي، دار الأمان الطبعة الأولى 2007م ، ص 137.
2 معتصم محمد: بناء الحكاية والشخصية في الخطاب الروائي النسائي العربي، دار الأمان الطبعة الأولى 2007م ، ص 179.

3 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م ، ص 198.

المتمثلة في الوقوف بقوة على الدوافع النفسية والأسباب الاجتماعية والفكرية التي شكلت الصورة الذهنية والتركيبية النفسية والسلوكية لشخصية الروائية "[1].

و يتجلى سرد الوطن في رواية "**سقف الكفاية**" من خلال عرض تجارب الشخصيات للعديد من الزوايا المتعلقة بأماكن العتمة فيه، إذ قام الكاتب بتسليط الضوء على المجتمعات العربية عامة، يقول ناصر" لم أكن في حاجة لأن يخبرني ديار بما حدث في حدود بلده بعد حرب الخليج"[2] كما حول الواقع الخارجي السياسي إلى قضايا قريبة جدا من الذات كالحرية العامة والنفي و الحرب، ويبرز السرد آنذاك التفاصيل والحركات بوصفه نسيجا صوريا ودلالي.

وقد امتزج سرد الوطن أيضا بالدلالة العشقية والحب، الذي عاشته الشخصيات في تجاربها، إذ امتزج حب الأنثى بحب الوطن من خلال صورة مها، التي تداخلت مع الوطن وقد برع الكاتب محمد حسن علوان في امتصاص عنف الحكاية الأصلية، من خلال تركيزه على التجربة العاطفية وقوة الحب، الذي أسهم في توالد السرد وتشكيل الخطاب الروائي.

ويتم أيضا خرق السردي في التجربة الروائية في مدونة بحثنا بمستويات لغوية، يعود بعضها إلى الشعري، الذي يحضر كلاما نثريا على منوال الشعر فسرد الوطن جاء مشحونا بعبارات الشعر لكثرة المعاجم و الاستعارات وهذه المستويات اللغوية تنعش السرد وتجعله مرنا في علاقته بالحكاية ولذلك جاء سرد الوطن كشفا عن كل مكنونات الذات فكان محكى الشخصيات ذاتيا انفعاليا شعوريا وهو ما يكشف عن مدى ارتباط قضية الوطن بالبطل والشخصيات وهي سمة بارزة في السرد إذ "نجد، اللغة الشعرية التدفق السردي، التداخل اللغوي والنصي، البوح والاعتراف استجداء الذاكرة، دقة الوصف، الخيال الواقع"[3].

ب. شعرية اللغة و الأسلوب:

جاء ظهور اللغة الشعرية في الرواية العربية مع ظهور الرواية الجديدة، إذ مثلت إحدى ظواهرها الجديدة، التي تتسم بها الرواية الحديثة قياسا على لغة الإبداع الأدبي العام منه والخاص، و أول من عرف اللغة فرديناند دي سوسير من خلال تعريفه للغة على "أنها نظام من العلامات التي تعبر عن الأفكار"[4] إذ أصبحت اللغة الشعرية سمة بارزة من سمات الحداثة في الرواية العربية بعد أن شهد هذا الاتجاه في الكتابة توسعا كبيرا لذلك لا بد من البحث في أسبابه، وأشكال تجليه خاصة على مستوى جماليات الخطاب الروائي ومظاهره ووظائفه المختلفة، التي تقوم بها على مستوى السرد الروائي ولعل البحث في أشكال حضور الظاهرة الشعرية وتجلياتها في الخطاب الروائي بما هي ظاهرة أسلوبية قد تفصح عن المصالحة بين الشعري والسردي. فالإنشائية عامة لم تقم على التعارض بين الشعر والنثر أو القطيعة بينهما وقد قامت العملية الإبداعية على كسر الحدود والفواصل واختراق الحدود والحواجز، التي سطرتها المرجعية النقدية العربية أو الغربية بين النثر والشعر وقامت بالمزج والتأليف بينهما رغم الحدود الصارمة، التي وضعتها الإنشائية الغربية .

وقد نجح الخطاب الإبداعي في إزالة هذه الحدود مؤكدا إمكانية التداخل والتمازج والتلاقح بين الشعري والسردي، وقد تعددت الروايات، التي التبس المحكي فيها بالشعري ما حقق لها قدرا كبيرا من الإنشائية والجمالية إذ سعى الروائيون إلى استعمال لغة الشعر في رواياتهم وبات من السهل لهم أن يسموا عوالمهم الروائية بلغة شعرية و" هي كلية العمل الشعري أو النسيج الشعري بما يشتمل عليه من مفردات لغوية وصور شعرية ومن موسيقى"[5] وهي أيضا " مكونات العمل الشعري من ألفاظ وصور وخيال وعاطفة ومن موسيقى "[6] واعتمادا على هذا المفهوم للغة الشعرية عامة سنتبين خصائص اللغة الشعرية في مدونة بحثنا ولما كان مدار بحثنا في هذا الجزء قائم على تقصي حضور الظاهرة الشعرية في اللغة ولأسلوب في تجربة محمد حسن علوان في "**سقف الكفاية.**"

---

1 معتصم محمد: بناء الحكاية والشخصية في الخطاب الروائي النسائي العربي، دار الأمان الطبعة الأولى 2007م ، ص 183.
2 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م ، ص 197.
3 معتصم محمد: بناء الحكاية والشخصية في الخطاب الروائي النسائي العربي، دار لأمانّ الطبعة الأولى 2007م ، ص 213.
4 Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, éditions talantikite bejaia, Algérie, 2002,p 22.
5 الورقي سعيد : لغة الشعر الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ط 3، 1984م ، ص 67.
6 نفس المرجع: ص 67.

أن التطرق إلى دراسة شعرية اللغة والأسلوب في النص السردي يتحدد أساسا من خلال اللغة وطرق توظيفها لتكوين الخطاب السردي وسماتها المميزة، التي تسمها بالشعرية يقول جان إيف تاديي"Jean –Yve Tadié" أن المرء لا يدرك أن قصة من القصص توسم بميسم الشعر إلا إذا انطلق من دراسة اللغة، فلا مفهوم الشخصيات ولا مفهوم الزمان أو المكان ولا مفهوم بنية القصة تعد شروطا كافية لذلك أما التكثيف والإيقاع والموسيقى والصور فلا تغيب أبدا فهي تصل إلى حد خلق الانطباع بأنك إذ تقبل على هذه القصص فكأنما نقرأ قصائد نثرية طويلة"[1].

فاللغة الشعرية أصبحت سمة بارزة ومهمة في الخطاب السردي الحديث ولما كان مدار بحثنا عن شعرية اللغة والأسلوب في سياق تناولنا لجدلية الوطن والمنفى سنعمل على دراسة اللغة والأسلوب وبيان مظاهر الشعرية فيهما.

وقد قسمنا البحث في **دراسة اللغة والأسلوب إلى أربعة مستويات** خصصنا المستوى الأول منها لدراسة شعرية المعجم والمستوى الثاني تناولنا فيه شعرية التركيب والمستوى الثالث للبحث في شعرية الصورة أما المستوى الرابع والأخير فخصصناه لدراسة أشكال الإيقاع.

1. مستوى المعجم:

تنوع المعجم في رواية "**سقف الكفاية**"، ليتراوح بين معجم عاطفي وجداني ومعجم الحزن والألم ومعجم الغربة والمعجم السياسي و معجم الكتابة، حيث تجمع فصول الرواية بين هذه المعاجم لتعدد تيماتها فيه، لاسيما تيمة الوطن والحب والملاحظ أن هذه المعاجم تتداخل حد التماهي فيما بينها إلى درجة يصعب الفصل بينهما وتمييزها عن بعضها لبعض فمعجم الحب والعاطفة والوجدان هو أكثر المعاجم تواترا ووجودا وتداخلا مع الوطن والموطن، يقول ناصر" أعلم أن أنوثتك مختلفة، وطيورك الواثقة أعلى من طيور المدينة، غير أني لم أكن أثق تماما آنذاك بأن هناك امرأة ناجية من أسطورة الخوف في بلادنا"[2]. و يقول أيضا " يكون لي وطن و احتواء وغرفة حبيبة. وأخرج بعد ساعتين فأفهم أيضا معنى أن يكون عندي شوق و رغبة .. و تذكرة عودة [3].

ويكشف خطاب السارد عن تداخل معجم العاطفة والوجدان والحب مع الوطن وهو ما يبين التجارب، التي مرّ بها السارد في حياته، حيث تتداخل فيما بينها و تتماهى حد الالتباس والتوحد والتي أخذت لون ذاكرته وماضيه وحنينه وشوقه إلى الوطن، وذلك من خلال ظاهرة تكرار كلمات "حب" و"عشق" و"حنين" "وطن" "وشوق" و"أنثى" "قلبي" "عينيك الضاحكتين" "شفتيك" "نهديك" بكثافة وهو ما يبين انفعالات الذات، التي تمارس طقوس وجودها على إيقاع ذكرى الوطن وحب الأنثى "**مها**" فجاء خطابه مشحونا بالكثير من الزخم العشقي وعواطف الحب والحنين.

ونجد أيضا في تجربة محمد حسن علوان الروائية، سجلا كبيرا من معجم الحب والوجدانيات والعاطفة بمشتقات مختلفة، كما تتكرر هذه الكلمات أكثر من مرة في الشاهد الواحد أو الكثير من المرات في الصفحة الواحد والتكرار عموما مرتبط بالشعر لا بالرواية ويستحسن في الشعر نظرا لوظيفته الإيقاعية أما في الرواية فهو يعتبر أمرا غير مألوف لكنه منح الخطاب الروائي شعرية وأحدث أثرا في المتلقي وأكسب الخطاب الروائي جمالية، كما أن ظاهرة التكرار من خصائص الكتابة الشعرية وأن سجل الوجدانيات، الذي وظفه محمد حسن علوان في روايته قد أحال إلى حالة الذات، التي تعيش حالة من الفقد والغربة بعد دخولها في تجربة عشق مع مها. إلى جانب معجم العاطفة و الحب نجد معجم الألم والحزن من خلال كثرة تواتر هذه الكلمات في النص الروائي " الحزن" " ألم" " الموت" "الخوف" أضمد جرحي" يسمم الجرح و لا يشفيه" و يتوحد معجم الحزن بمعجم الحرب فيقول السارد" مقابر جديدة تفتح أبوابها و يتدفق سيل الموتى. في الرصافة، في الكرخ، في الكاظمية، في البصرة في الرستمية، في كل مكان"[4].

ونلاحظ أن "محمد حسن علوان" تنأى عن لغة الموضوعي المرجعي لتعمد إلى سجل وجداني عاطفي ما يسم لغته بالشعرية والخصوصية، يقول ناصر"مشاعر كهذه هي التي خبأتها في حقيبة ملابس، و توارت معها خلف تذكرة سفر و تركت

1 Jean – Yve Tadié le récit poétique p 179.
2 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 46.
3 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 89.
4علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 198.

مدينتي إلى ضماد آخر"[1] فلغتها لغة البوح والمشاعر وانفعالات الذات واستبطانها والمتعارف عليه أن لغة الشعر هي التي تحتفي بالمشاعر والأحاسيس ولغة الرواية هي لغة تحتفي بتفاصيل الواقع والموضوع إلا أن الكاتب، قد أكسب الخطاب الروائي شعرية نظرا لتمازجها بمعاجم الوجدان والمشاعر وهذه المعاجم وليدة الذات وبواطنها وتغدو بذلك لغة تأثيرية تعبيرية متميزة.

2. شعرية التركيب :

التركيب هو دراسة بنية المقطع، و كيف تخضع الجملة في النص الروائي إلى مبدأ الشعر وذلك من خلال بعض الجمل القصيرة و التنقيط و التكرار وهو ما نلاحظه في متن الرواية في أكثر من موضع " لماذا نحن ياربي ..

بلا وطن، بلا حب

نموت .. نموت في رعب..

لماذا نحن فالمنافي.. لماذا نحن .. يا ربي [2].

ونلاحظ من خلال هذين المثال أن الجمل قصيرة وليست مترابطة ترابطا لفظيا ومعنويا ولا تتميز بالتسلسل فالربط بين هذه الجمل يبدو مفقودا، وهو ما يجعل منها شبيهة بمقاطع الشعر الحديث ثم أن الجمل في المثال، التي تم ذكرها تحتكم إلى تقنية البياض والسواد مثل توزع الأسطر الشعرية في الشعر الحديث، إذ يستعير الكاتب النسق الشعري في مستوى الكتابة السطرية المتفاوتة طولا من خلال التقديم والتأخير في الفضاء ما خلق تجاذبا بين البياض والسواد على فضاء الصفحات.

وقد عمد الكاتب أيضا إلى استخدام تقنيات التشكيل البصري للكتابة، من خلال استخدام النقاط المسترسلة وعلامات الاستفهام والتعجب وهي علامات تكشف عن انفعالات الذات لا سيما في امتزاج كل من الحب والوطن وألم الذات وغربتها وهذه العلامات هي جزء من التركيب، الذي ينشئه الروائي عن وعي قصدي ليبيّن حالة الذات وعلاقتها بكل من الوطن والحب .... مثال" و المشاعر؟

ماذا عنها؟

هل تأبه للحدود برأيك؟ "[3]

" حيث التفت، رأيت شعبا جائعا

عريان، يملأ جوفه بالماء

يسقي الزروع دما .. لتثرى طغمة

تبني سعادتها على الإشقاء "[4]

ونلاحظ أن الكاتب مزج في الخطاب الروائي بين مقاطع تركيبية تشبه الشعر، من خلال التركيب، والانزياح وبناء المقطع، وهو ما أسهم في توليد شعرية خطابه الروائي، وهو ما يميز أيضا عمله عن غيره من الأعمال عبر التمازج بين السردي والشعري في تجربته الروائية.

3. شعرية الصور البلاغية و المجازية و الإيقاع:

تعتبر الصور البلاغية والمجازية من أهم العلامات، التي تُميز الشعر عن لغة السرد فالشعر يحتفي بهذه الصور على عكس السرد. وهي سمة مميزة من سمات اللغة الشعرية وجوهرها فالصورة البلاغية يقول السارد " صباح نافذتي الكسلى التي كانت تواعد الشروق، قبل أن يهجرها، و يذرفها حبلى [5]. " أدمنت الحنين في هذه الشرفة. كل مرة أتخيلك تجلسين معي فيها. كم كان هذا المكان جديرا بنا. كأن الجمال سينتهي من فرط سخائه و لكن القبح كامن في داخلي أنا الذي جررت حزني كل هذه الأميال،

1علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 93-94.
2علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 200.
3علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 147.
4علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 199.
5علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 89.

لعلي أجد في هذه المدينة تعويذة للنسيان، و ملاذا من الوحشة التي باتت معلقة على جدران ذاكرتي مثل رؤوس الأيائل في بيوت الصيادين النبلاء"[1].

نلاحظ من خلال هذا المثال أنّ الكاتب يحتفي احتفاء خاصا بالحب والوطن، من خلال المزج بين الأنثى و الوطن، حيث تتماهى الصورتين معا حد الالتباس والتوحد فيكثر الكاتب من الصور البلاغية مثل الاستعارة التصريحية.

نتبين أن المثال يحتوي على الكثير من الصور البلاغية والمجازية معا إذ يتأنق الكاتب في المزج بين صورة الحبيبة وصورة الوطن السعودية، وذلك من خلال التكثيف من الصور البلاغية التي قام عليها هذا المقطع إذ تبدو الصور هنا متعالقة مجازيا فتتوالد الصور واحدة ضمن الأخرى لتولد طاقة تعبيرية وتأثيرية تعطي للخطاب أبعادا شعرية إيجابية جديدة، كما تعطي هذه الصور للخطاب جمالية، من خلال الاستعارة والمجاز فهذه الصور المكثفة في المقطع الواحد تكسب الخطاب شعريته في حين أن العبارات البسيطة لها وظيفة إخبارية لا غير.

أن المتأمل في هذه الأمثلة يلاحظ كثرة الصور البلاغية، خاصة في موضوع الحب والوطن إذ تلتبس هذه الصور مع حالة الشخوص في الروايات، التي تعاني من وجع فقدان الوطن ومن حنينها وشوقها إليه. وهو ما منح اللغة سمة الإيحاء، مما يعلل هيمنة الوظيفة الجمالية، وذلك من خلال كثافة الصور المجازية ما وسم الخطاب الروائي بالشعرية، يقول السارد" أتعلمين ماذا تشبه الغربة؟ تشبه المبنى الآيل للسقوط؟ نعيش تحت سقوفه القديمة و لا ندري متى يسقط فوق رؤوسنا"[2]. انزاحت لغة هذا الخطاب عن الموضوعية والحيادية إلى لغة مشحونة بالصور والمجازات و التشبه، إذ تهيمن عليها الوظيفة الانفعالية من خلال التصوير، الذي قامت عليه المقاطع من استعارات وتشبيهات ومجازات بعيدا عن اللغة التقريرية، التي تصف الموجودات والأشياء وتنقل مشاعر الشخوص تجاه الأشياء بلغة بسيطة وإخبارية حيادية. فهي تعمد إلى التكثيف من هذه الصور، من خلال لغة الترميز والإيحاء والالتباس والغموض. وهذه السمات هي من سمات الشعرية في لغة الخطاب الروائي " فاللغة الشعرية هي لغة انفعالية حين التلفظ بها مؤثرة في القارئ حين تقبله إياها "[3].

أن ما يُميز النص الروائي، الذي أنتجه محمد حسن علوان هو القدرة الإبداعية على المزاوجة بين لغة الشعر ولغة السرد، إضافة إلى مزاوجته بين وظيفتي اللغة البلاغية والإبلاغية، إذ تجافي لغته الأداء السردي التقليدي ويتجاوزه راميا إلى تعابير شعرية ودلالات جمالية، فشعرية اللغة سمة تصويرية مشتركة بين جملة فصول الرواية،، وقد تشارك في المنطلقات الفكرية والجمالية وبالأخص المقدرة على تفجير طاقات اللغة الأدبية بما توفره هذه اللغة للروائي من حرية في التعبير، وقدرة على التحليق في فضاءات تخييلية تعجز اللغة "الواقعية" أو "التواصلية" عن مجاراتها و كل هذه العناصر تتفاعل لخدمة عناصر السرد للتفاصيل الدقيقة أو لبنية الخطاب"[4].

رابعاُ: الوطن و المنفى و التباس التخوم

أ. الوطن و المنفى بين المرجعي و المتخيل:

يعتبر الاهتمام بعنصر الفضاء الروائي في النقد العربي ضرورة حتمية فرضتها الرواية العربية الجديدة نتيجة التفاعلات الثقافية والاجتماعية والتاريخية، التي تشمل كل العناصر السردية فالمكان "ليس عنصرا زائدا في الرواية، فهو يتخذ أشكالا ويتضمن معاني عديدة، بل أنه قد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله "[5] إذ يشغل العديد من الوظائف في السرد الروائي أولا باعتباره مكانا واقعيا مرجعيا وذلك للإيهام بواقعية الأحداث لأنه الفضاء الذي تجري فيه الأحداث وتتحرك فيه الشخصيات وعادة ما يكون وصف المكان مرتبطا بوظيفته في الحكاية فهو يقوم بتحديد إطار الحكاية وارتباطها بمرجعها خاصّة، كما يمثل عنصر المكان أحد عناصر الحكي الفنية، إذ يسهم في تطوير بناء المحكي الروائي على عكس وظيفة الفضاء، التي وقع

1علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 143-144.
2علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 286.
3بن عياد محمد : جدلية القصة والشعر دار الطباعة والنش، صفاقس، تونس ط1 2003م، ص 315.
4 Lucien Goldman . pour une sosiologie de roman. paris. 1978. p245.
5 بحراوي حسن : بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،1990م، ص 33.

تهميشها في الرواية التقليدية بعد أن كان مجرد خلفية للشخصيات والأحداث وعنصرا مؤثثا في السرد الروائي للإيهام بالواقعية لا غير.

وقد تجاوز النقد العربي للرواية العربية الجديدة هذه النظرة السطحية للمكان عنصرا تأثيثياً في النص الروائي بعد التطرق إلى سماته الشعرية بعيدا عن الموضوعية والحيادية والواقعية، التي تجعل منه مكانا واقعيا فقط يتماشى مع النسق السردي في الرواية لا أكثر .

وتتمثل قيمة المكان في السرد الروائي تيمة أساسية لكونه الإطار المحدد للأسئلة الموضوعاتية، ومن خلال هذه المقاربة سنعمل على دراسة عنصر الفضاء من خلال تجربة محمد حسن علوان الروائية، باعتباره قيمة جمالية وطوبوغرافية لها سياقاتها المتنوعة وأيضا للكشف عن علاقات الشخصيات بالفضاءات. إذ " يبدو المكان كما لو كان خزانا حقيقيا للأفكار والمشاعر والحدوس، حيث تنشأ بين الإنسان والمكان علاقة متبادلة يؤثر فيها كل طرف على الآخر"[1].

وهو ما سنتبينه من خلال دراستنا لفضاءات الوطن والمنفى بين المرجعي والتخييلي في رواية "**سقف الكفاية**"، هذه الثنائية التي قام عليها السرد الروائي في مدونة بحثنا وذلك باعتبار الفضاء الروائي "عاملا أساسيا قائما في بناء النص، ولكن وظيفته ليست تقديم إطار واقعي للأحداث بل توفير إطار تمثيلي وتصويري لها مهما بدت صلته بالواقع ضعيفة فقد يستخدم الفضاء لخلق عالم خيالي محض، كما هي الحال في روايات الخيال العلمي، أو لإحاطة الحدث بجو خاص، أو لتسليط الضوء عليه، أو كشف طبائع الشخصيات، أو لبيان القوى المتصارعة في الحكاية"[2].

والأماكن في رواية "**سقف الكفاية**" متعددة ومختلفة، والفضاء الروائي هو المساحة الملمة بهذه الفضاءات والكاشفة عن طبيعتها وعلاقتها بذوات الشخصيات وتنقسم هذه الفضاءات إلى فضاءين ثنين فضاء الوطن وفضاء المنفى، وهي تتراوح بين المرجعي والمتخيل، من خلال تقديمها تقديما شعريا يعطيها أكثر من بعد في الكتابة الروائية وأكثر من سمة. فالمكان هو ركيزة أساسية في المشهد الروائي لما يضطلع به من دور و لما يكتسبه من أهمية في علاقته بالشخصيات وفي تشكيل عوالم السرد وبنية الخطاب الروائي إذ "لا شيء في الرواية يتميز باستقلالية عن البنية المكانية، كما أن كل المواد الداخلة في تركيب السرد تصبح تعبيرا عن كيفية تنظيم الفضاء الروائي وصلا إلى شعرية المكان "[3]، باعتبار أن المكان الروائي بناء لغوي، يشيده خيال الروائي، والطابع اللفظي فيه يجعله يتضمن كل المشاعر والتصورات التي تستطيع اللغة التعبير عنها "ولما نستطع الحديث عن نص إبداعي لا يعتمد على المخيلة فإن الخصائص الوظيفية لهذه المخيلة تتجلى في وظيفتين : أولهما انعكاسية للواقع تكتفي بحدود توليد الأحداث وتشكيل الشخوص، ونقل المواقف . والرواية لم تعد عملا انعكاسيا للواقع. أما ثانيهما – وهي الأهم – فتنطلق من تجاوز الوظيفة التقليدية الرتيبة والساذجة للمخيلة إلى الوظيفة الإبداعية القادرة على تشييد واقع جديد، وهو الواقع الروائي أي الواقع الجمالي الذي يعيد صياغة الواقع التاريخي عن طريق تفجيره، وتصعيده، والتحكم فيه من كافة الجوانب التي تحددها رؤية الكاتب "[4].

ويسهم كل من المكان والزمان والشخصيات والسرد والوصف في تشكيل عالم روائي مبني على الموضوعي المرجعي والمتخيل في آن واحد فالتخييل" هو طاقة الفكر على جمع شذرات النصوص المقروءة والذكريات البعيدة والتجارب المختلفة في حركة متجهة نحو غاية هي خلق الرواية "[5].

وقد استلهم الكاتب في "**سقف الكفاية**" من رحم الواقع القضايا الاجتماعية والتاريخية والنفسية لتشكيل عالمها الروائي المتخيل، و" في البداية نعرف المتخيل بأنه بناء ذهني، أي أنه انتاج فكري بالدرجة الأولى، أي ليس انتاجا ماديا في حين الواقع هو معطى حقيقي موضوعي، هذا الطرف الأول بين طبيعة كل من المتخيل والواقع القائمة على التعارض بين فكر ذهني وحقيقي

1 بحراوي حسن : بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،1990م، ص 31.
2 لطيف زيتوني :معجم مصطلحات نقد الرواية دار النهار للنشر لبنان الطبعة الأولى 2002م، ص 128.
3 النصير ياسين : ما يخفيه النص قراءات في القصة والرواية، دمشق، الطبعة الأولى 2012م، ص 13.
4 بن جمعة بوشوشة : سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، الطبعة الأولى 2005م، المغاربية للطباعة والنشر ص 122.
5 لطيف زيتوني :معجم مصطلحات نقد الرواية دار النهار للنشر لبنان الطبعة الأولى 2002م، ص 101.

موضوعي، يبرز التعارض الظاهري بينهما، بناء ذهني معطى حقيقي، وبين ذاتي إبداعي وموضوعي أنطولوجي هذا التعريف يضع المفهومين في قلب الإشكالية الميتافيزيقية القائلة بأن بناء العالم على عدد من الثنائيات الضدية : الخير الشر المادي الروحي، الحسي الجلي"[1].

والمكان في العمل الروائي عنصر من عناصره الفنية، فلا يتحقق النص إلا بوجود هذا الحيز، الذي تتصل فيه الشخصيات مع بعضها البعض وتتواصل وتتحرك، سواء كان العمل موجودا في الواقع أومن نسج خيال المؤلف فالرياض المدينة الأكثر تواترا في فصول الرواية و هي بداية للأحداث و لنهايتها و هي مدينة مفتوحة على تناقض مستمر قطباه الماضي المرتبط بالتضحية و الحب والحاضر المفتوح على أكثر من تأويل هذا الفضاء الحاوي للعديد من الفضاءات الأخرى أسسته الشوارع، المطار، البيت العائلي، المناخ.. هذه الفضاءات التي تربط بين حاضر الشخصيات وماضيه، حيث شكلت مدينة "الرياض" فضاءا ذهنيا استرجاعيا من خلال تجربة ناصر و حياته و متعلقاتها.

إذ يبدو المكان جزء من بناء الشخصية من خلال وجود علاقة تأثير وتأثر بين المكان والبطل من خلال الكشف عن الحالة الشعورية والذهنية له، والتحولات الداخلية التي تطرأ عليه، حيث يمثل المكان رمزا من رموز الانتماء بالنسبة للشخصية لا سيما إذا كان هذا المكان أليفا في علاقته بالشخصية، فهو لا يُعمق إحساسها بالغربة بل على العكس ينمي فيها الإحساس بالامتلاك، وذلك حين تمتلك الشخصية بالفعل مكانها وجدانيا مع وجود حبيبته مها في نفس المدينة.

ويقدم "البطل ناصر" صورا متناقضة لمدينته الرياض هذا الفضاء القائم على الازدواج والتضاد بعد أن رصد أهم المفارقات، التي تطبعه، من ثم يتسنى لنا القول أن التصوير اللغوي إيحاء يتجاوز الصور المرئية المجردة والموضوعية والوصف النفسي داخل سياق النص الروائي ليعطيها بعدا دلاليا أعمق، من خلال اقترانه بهواجس الذات فيحضر المكان المرجع بتفاصيله، من خلال استدعاء البطل للكثير من العناصر المكونة له من أماكن و مناخات طبيعية.

وتقوم الأمكنة في رواية "**سقف الكفاية**" على تقاطب بين المرجعي والمتخيل وذلك من خلال تصوير المكان لغويا وليس بصريا إلى الحد، الذي يجعله يتشارك مع المبدع في إحساسه بالمكان، وبمعنى آخر يمكن القول أن الجمالية لعبة لغوية يمارسها المبدع فيصبح معها المكان الغائب حاضرا متمثلا في ذهن القارئ من خلال تقديم وصفا له مثال وصف البطل ناصر لغرفته و مكتبه و لأفراد أسرته و أيضا وصف فانكوفر الكندية من خلال تقديم وصف لمناخاتها و جسورها و شوارعها ...

ونلاحظ من خلال ما ذكرنا اشتراك كل من الواقع والمتخيل في تشكيل صورة الفضاء وعلاقة كل منهما بالآخر فالمتخيل يحيل إلى الواقع والواقع يحيل إلى نفسه وما لاحظناه في مدونة بحثنا أن الواقع تمثل في حضور العديد من فضاءات الوطن وهو معطى حضوري يدرك بالحس والمتخيل نوع من الممارسة لهذا الواقع بعد إعادة تشكيل وإنتاج له و" الكلام عن المتخيل (الأدب) يفضي إلى الكلام عن الفضاء السوسيوتاريخي والمجال الثقافي الذي أنتج فيه أو على غراره الأدب مهما تعددت المداخل وتنوعت المقاربات، لأن النص رغم خصوصيته الفردية الذاتية فهو في غالب الأمر إنتاج مجتمع معين ووليد ظرف حضاري محدد يتقاطع مع أماكن عديدة مع هذا المحيط ويتفاعل معه "[2] وقد سعى الكاتب محمد حسن علوان إلى إقامة عالم روائي مواز لعالم مرجعي من حيث علاقة المتخيل الروائي بالواقعي المرجعي.

ب. الوطن و المنفى و حوارية المكان و الكتابة:

سنعمد في هذا العنصر من البحث إلى دراسة حوارية المكان والكتابة وذلك بناء على العلاقة القائمة بينهما والتي تتجلى في التعالق و التقاطب بين المكونين والبحث في أسس علاقة التحاور التي تربطهما .

ويتعين حضور تيمة الكتابة في رواية "**سقف الكفاية**" جزء من شخصية البطل، من خلال الحديث عن طقوسها وحميميتها وخصوصيتها إذ لا يمكن أن تمارس الكتابة في نظره إلا في فضاءات خاصة ومناخات حميمية بالدرجة الأولى فالمكان هنا هو

1 خميري حسين :فضاء المتخيّل دراسة أدبية منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2001م، ص 39.
2 خميري حسين : دراسة أدبية فضاء المتخيّل، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2001م، ص 37.

الدافع والإطار الحميمي والذاتي الذي يحضن هذه الممارسة يقول البطل "جامحة هي الكتابة التي تستمد مدادها من الذاكرة التي تغمس يراعها في الوجع، التي تشرب من ماء الروح الشحيح بنهم، التي تخرج إلى الحياة، قبل أن أحجز لها مكانا فيها"[1].

فالكتابة حالة إبداعية ذاتية شديدة الارتباط بالمكان، وما يقوم بينهما من تقاطب وتعالق ومقومات. فالمكان هو الفضاء، الذي في ضوئه تتم الكتابة وهو الحاو والحاضن لهذا الفعل لما يمنحه للذات من حميمية وذكريات، كما تقترن الكتابة بالكيان والذات والذاكرة و البوح.

إذ يلتبس فعل الكتابة بالذاكرة وبالأساس ذاكرة المكان وذلك للحفاظ عليها وحمايتها من التلاشي والضياع فالمكان هو فضاء الذكريات والأحداث التي عاشت فيه الشخصيات ذكريات الطفولة والشباب... فالكتابة في علاقتها بالمكان هي فعل إثبات للذات عبر مسار الذاكرة وهي تعويض عن كل الخسارات، التي مرت بها الشخصية البطلة.

ويكشف السارد من خلال محكيه عن تداخل وتماهي كل من المكان الموطن الرياض وفعل الكتابة و تقاطبه مع الحب و تعالقه حد التباس و التماهي في تجربة السارد، باعتبار أن الحديث عن تجربة الذات، التي تمارس فعل الكتابة في حضرة من تحب وتحت وقع سطوة المكان الموطن الرياض هو ضرب من الكشف عن حالة الذات وهواجسها تجاه الحبيبة والموطن معا، حيث يصبح المكان هو الحاوي لتجربة الكتابة والحب وهو الحاضن لإحياء ذكرى الحبيبة وهو الدافع للكتابة، فيحفز بذلك الشخصية الرئيسية على البوح والاعتراف بمشاعرها وانفعالاتها على مساحة الورق.

ويعلن السارد من خلال قوله عن اقتران فعل الكتابة بالبوح والاعتراف عبر أشكال من المحاورة بين ذات السارد والكتابة ما جعل العديد من الأفكار والتساؤلات والرؤى على مستوى المكان وفعل الكتابة تتخذ من هواجس الذات وبواطنها وتداخل المكان الوطن بالحب عبر طرائق من التعبير عن هواجس الذات ووعيها بالمكان والوجود ومن ثمة تعلن الكتابة عن اكتمال تجربة السارد مع الوطن والحب " وهي إلى ذلك حد بين الماضي (تاريخ الأنا في مجراه وتحولاته)، والحاضر (زمن الكتابة والسرد)"[2].

ونلاحظ أن فعل الكتابة في تقاطبه مع المكان قد أسهم في بلورة أهمية وعي الكاتب بهذه الثنائية القائمة على التحاور. وهو ما يبرزه التفاعل النصي القائم على السردي والنقدي في آن وهو ما يؤكد أيضا الطابع الإشكالي لفعل الكتابة و تقاطبها مع المكان الوطن، الحب، الحياة، الوجود ...

ويتحول المكان المرجع إلى مكان متخيل فتنشأ بينهما حوارية بين واقعية المكان وتحويله عبر الكتابة إلى مكان نصي متخيل، وذلك عبر محاكاة الكاتب محمد حسن علوان لأشكال الحياة والوجود للوطن هذا المكان الذي تم استدعاء فضاءاته عبر فعل الكتابة وتقنية التذكر وتشكيل عوالم النص الروائي وهو ما يبرز نزعت الكاتب التخييلية في تشكيل عوالم حكيه.

خلاصة البحث و نتائجه

سمح لنا البحث في إشكالية الوطن والمنفى في رواية "**سقف الكفاية**" باستخلاص العديد من النتائج التي نوردها على النحو التالي: إشكالية تمثل كل من الوطن والمنفى في رواية "**سقف الكفاية**" وبيان العلاقة بينهما بسبب التباس التخوم بينهما حد التداخل و التماهي و الجدلية التي تحكم كلا من الوطن و المنفى و طرق تشكيل المفهومين حسب المنهج البنيوي في نظام الحكاية و تحليل الخطاب وسياقه .

سعينا في أولها إلى الاهتمام بتعدد وجوه الوطن ومراياه في رواية "**سقف الكفاية**" ما يعلل ترافد صوره الجمالية والدلالية، وأبرزها صورة الوطن، و المنفى، وهي الصور التي يعمد الكاتب إلى تشكيلها من خلال الاشتغال المكثف على الذاكرة، والضرب في مسالك التخييل والتفنن في اللغة بتفجير الكامن من طاقتها، وإضفاء سمة الشعرية عليها .

1 علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004م، ص 12.
2 بن جمعة بوشوشة : سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، الطبعة الأولى 2005م، المغاربية للطباعة والنشر ص 221.

كما تتجلى صورة الوطن الفردوس في مشاعر الحب التي يعيد من خلالها الكاتب تشكيل صورته، فضلا عن مشاعر الحنين، وهو يمارس الكتابة عنه من بلد المنفى كندا وقد شكله الكاتب من خلال استخدامه المكثف لتقنية التذكر في استعادة وقائع ذاكرته الفردية بالأساس والذاكرة الجماعية عامة.

ويندرج في سياق رسم الكاتب لصورة الوطن الفردوس إعادة تشكيله لصورة الموطن : الرياض، من خلال ذاكرة العشق والحنين، من خلال سيرة الذات في علاقتها بهذا الموطن، تؤكد عمق العلاقة القائمة بينهما، ما يحول الموطن إلى عنوان هوية.

والكشف عن تجليات صورة المنفى، تمارس فيه الذات بحرية تجاربها في الوجود ومنها تجربة البطل و صديقه ومغامراتهما في الحياة، حيث تهاجر الذات عكسيا من المنفى إلى الوطن لترتل شوقها له وحنينها إليه، فترسم صورة الوطن المرتجى الذي تحلم بتجسيده، وطن تسوده الحرية والأمان، يكفل للفرد كرامته وذاته وتشيده مبادئ المساواة بين مختلف فئات المجتمع العربي. ويكون بذلك وطن الحلم والخيال لا وطن الأرض، ووطن اللغة والنص لا وطن الحقيقة فتحضر الكتابة شاغلا فكريا وتشكيلا جماليا في النص الروائي عبر الكشف عن دوافعها فعلا يتماس فيه الذاتي والموضوعي لتعوض عن وحشة المنفى وخيبات الوطن.

ووجهنا اهتمامنا الأخير في هذا البحث في الكشف عن تجليات اللغة والأسلوب على مستويات متنوعة، حيث يعتمد الكاتب إلى توظيف تقنيات (الوصف والتصوير والترميز والإيحاء والانزياح والتخييل والتكثيف) في بناء النص الروائي وهذا وفق رؤية ذاتية خالصة فأكسبت ملفوظه طاقة شعرية بما حققته من إنزياحات عن اللغة العادية ومعايير الكتابة النثرية، فتفجرت شعرية اللغة من هذا التمرد على قواعد النثر وخرجت في كثير من الأحيان عن المعنى الواضح والمباشر إلى معاني أخرى افترضتها ذات الحالة، وقد تجلت هذه الشاعرية في استعارة الكاتب للنسق الشعري في عدت سياقات و في بنية نظام اللغة ، مستوى المعجم، والمستوى الإيقاعي الصوتي، والمستوى البلاغي.

قائمة المصادر و المراجع

المصادر:

- علوان محمد حسن: سقف الكفاية، دار الفارابي بيروت الطبعة الثانية، سنة 2004.

المراجع العربية:

1. بن جمعة بوشوشة: سردية التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، المغاربية للطباعة والنشر الطبعة الأولى 2005م.
2. النابلسي شاكر : جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1994م.
3. بحراوي حسن : بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،1990م.
4. بركات حليم : غربة الكاتب العربي دار الساقي للطباعة والنشر بيروت 2011م.
5. بن عياد محمد : جدلية القصة والشعر دار الطباعة والنش، صفاقس، تونس ط1 2003م.
6. خميري حسين: فضاء المتخيل، دراسة أدبية منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية 2001م.
7. حافظ صبري : أعمال ندوة الرواية العربية في نهاية القرن، رؤى ومسارات، سورية دمشق 2003م.
8. سعيد ادوارد : تأملات حول المنفى ومقالات أخرى 1 ترجمة ثائر ديب دار الآداب – بيروت 2007م.
9. الطريطر جليلة : مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث،(بحث في المرجعيات) مركز النشر الجامعي، تونس مؤسسة سعيدان للنشر 2004م.
10. يقطين سعيد : القراءة والتجربة، دار الثقافة الجديدة، الدار البيضاء 1999م.
11. ميهوب محمد آيت : فلسطين...الأرض والسماء، "مجلة الحياة الثقافية" العدد242 السنة 38 جوان 2013م.
12. معتصم محمد: بناء الحكاية والشخصية في الخطاب الروائي النسائي العربي، دار الأمان الطبعة الأولى 2007م.
13. النصير ياسين: ما يخفيه النص قراءات في القصة والرواية، دمشق ، الطبعة الأولى 2012م.
14. الورقي سعيد : لغة الشعر الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ط3 ، 1984م.

الدوريات:

1. بن جمعة بوشوشة :شعريَة المدينة الأوربية، مجلة الحياة الثقافية العدد 242 جوان 2013.
2. محمد محمود: حوار مع أحلام مستغانمي "البقاء على قيد الحياة " من مجلة أيام الرواية العدد الثاني مؤتمر الرواية العربية بالقاهرة 2007م.

الكتب المعربة:

- غاستون باشلار: جمالية المكان، ترجمة غالب هلسا. تشكلات الشعريّة الروائية 2000م.

المعاجم:

- زيتوني لطيف : معجم مصطلحات نقد الرواية دار النهار للنشر لبنان الطبعة الأولى 2002.

المراجع الأجنبية:

1. Jean – Yve Tadié le récit poétique pufécriture 1ére édition 1978.
2. Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, éditions talantikite bejaia, Algérie, 2002.
3. Lucien Goldman . pour une sosiologie de roma, Paris.
4. Henri Mitterrand « préface » in Deni Bertrand, espace et le sens, paris, Amsterdam, Ed, Hadès, I Benjamin, 1985, p9.